محمد الأحمد

دَمُهُ

رواية

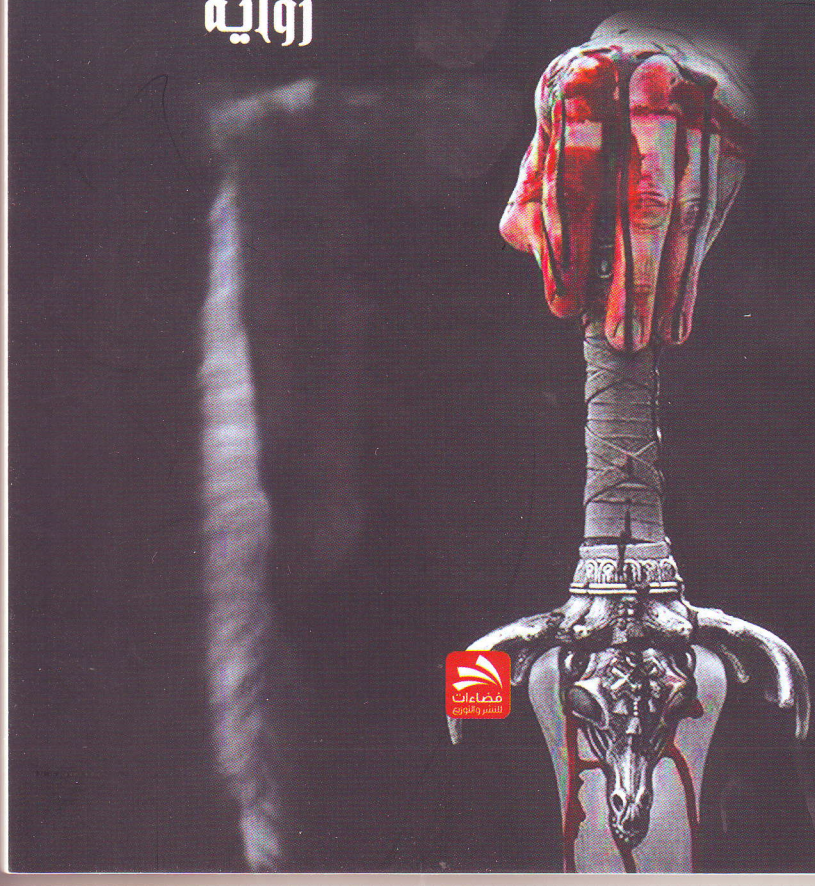

فضاءات للنشر والتوزيع

MUHAMMAD AL-AHMAD

أحداث هذه الرواية المثيرة مأخوذة عن قصة تاريخية قلَّما تناولها كتّاب التاريخ، محاولة جادة من المؤلف في أنْ يقتحم تلك المصادر العديدة، والشهيرة، ليعيد تنظيمها وفق رؤية دقيقة حتى يسرد لنا حكاية يجب أنْ يعرف بها القاصي والداني عن محاكم التفتيش العقلية. تبحث في مدارس التأويل ثم تتابع سيرة والي العراق – من المهد إلى اللحد – الذي تسلم من بعد الحجاج بن يوسف الثقفي، بسيفه البتار الأكثر بشاعة ودموية.

تروي عصر خلافة "هشام بن عبد الملك". رواية مفاصلها دقيقة لأنَّها مبنية بدقة عبر ثمانية فصول مثيرة عن دقائق أحداث ليلة عيد الأضحى ولحظة ذبح الجعد ابن درهم على يد والي العراق خالد القسري في يوم العيد.

والرواية مكتوبة بطريقة سردية اعتمدت الاختزال والفصول القصيرة، لأجل أنْ تجعل القارئ العربي والعالمي يُلِمُّ بأسرار تلك الليلة الرهيبة. رواية لا تذكر أسماء لأنها مدخل معرفيٌّ لقراءة جديدة في كتب التاريخ العديدة، المختلفة المدارس والأهواء بحسب العقائد والمصالح. تروي بيقظة لتدرس الكيفية الحقة لسقوط الدولة الأموية وصور أغلب حكّامها بجميع وجوههم المقنَّعة، إنَّها تكشف نزواتهم لأنها السيرة الكاملة لطبيعة ذلك العصر.

9 789957 699543

فضاءات للنشر والتوزيع

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan • dar_fadaat@yahoo.com

دَمُـهُ

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2017/9/4816

813.9
علوان، محمد احمد
دمه – محمد احمد علوان– عمان: دار فضاءات، 2017
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-699-54-3

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

دمه – محمد احمد علوان – العراق
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaat.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

محمد الأحمد

دَمُـهُ

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

أهم المراجع التي اعتمدت عليها الرواية:

- موسوعة الإنترنيت المختصرة ومواقع أخرى.
- تاريخ دمشق الكبير: ابن عساكر الدمشقي. دار إحياء التراث العربي.
- البداية والنهاية: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي- تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي- دار هجر للطباعة والنشر- القاهرة- [1419هـ=1998م].
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي- د. حسين إبراهيم حسن- دار الجيل- بيروت، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة [1416هـ= 1996م].
- التاريخ الإسلامي العام: د. علي إبراهيم حسن- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- [1379هـ= 1959م].
- تاريخ الرسل والملوك: ابن جرير الطبري تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر- القاهرة.
- الدولة الأموية: محمد الخضري بك دار القلم- بيروت- [1406هـ= 1986م].

- عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية [أعلام العرب:10]- د. ضياء الدين الريس- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة- القاهرة- [382هـ= 1962م].
- الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ابن الأثير)- دار صادر- بيروت.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي- دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا- مصطفى عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- نصف الخبر: كتاب في التأويل معد للنشر للمؤلف.

(لم نقرأ تاريخ العقل العربي بحسب تناقضات أساسياته، ولو فعلنا لعبرنا الهوة الملتهبة، التي بقيت بيننا، وما زالت تأكل كل ما حولها. (الإجراء الوحيد الذي يمكننا اتخاذه، بشأن الشائن من التاريخ المكتوب، هو إعادة كتابته).

***

(أن تكتب، ليس أنْ تُعلم، أنْ تتعلم أيضاً، لأنك تدخل عملياً إلى غاية لاستخراج مباهجها).

***

(فتىً كنبعِ الصفا لم يختلفْ خلقاً ولا تلوَّنَ كالفتيانِ ألوانا[1])...

***

1 – أحمد شوقي.

(ربما خارج الجوقِ أعزفُ.. حيث انفرادي وقوفًا له نسقٌ يملك البصمةَ المشرقة، وله بابٌ رؤيا تطلُّ إلى الصبحِ، تنثرُ فوق الرؤوسِ تباشيرَ هلّ ابتساماتِ عطرٍ يضوعُ، ولكنني أخلعُ الشمسَ من وجه طلّتها.. كلما لاحَ بعضُ بصيصٍ من الليل يفتحُ نافذةً لشروقي إلى اللحظة الآسرة.[2])

2 – أمير الحلاج/ شاعر عراقي معاصر.

(بلاد الدنيا العظام ثلاثة نيسابور لأنها باب الشرق،
ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين
قل ما لا يمر بها[3])

3 – ياقوت الحموي.

قبل أذان صلاة المغرب 9 ذي الحجة. سنة (119هـ)

1

تجد في الكوفة أكثر من محب، وكل حبيب بفنه مقيم، الحافظ لقولك، والباسم له، والملهوف عليه. الأول يدسّه في غاية يريدها، والثاني يُفاتح به ما أراد له القول، أمّا الثالث طالب علم كالعطش يودّ أنْ يزيح جهلاً كان مقيتاً.

2

خرج من عنده القضاة الثلاثة مرعوبين.. كأنما إشارته لهم بالمغادرة قد أعادتهم إلى الحياة، خرجوا تباعا متسارعين، مرتجفي الأوصال، باضطراب بيّن.

لم يستطع أنْ ينظر أحدهم إلى صاحبه، مخافةً منه أنْ تخلف عند الأمير معنى ما، ليس مقصوداً فتكون القاضية.. من بعد تأويلٍ بالعداء عليه، حيث المساران اللذان عرفوهما عنه، ليس لهما ثالث إمّا أنْ يكون معه، أو ضده.

تعودوه أنْ يطيل النظر مليّا في وجه من يمثل بين يديه، يقرأ الوجوه جيداً، ولا يهمل أيّ تفصيل فيه مهما كان. يصدق استنباطاً وكاشفًا به عن عمق يخلفه اللقاء، قد يفضي إلى عقوبة موت من بعد حياة، أو هبةِ حياةٍ من بعد موت.. يغدق بالمال أو يذبح بالسيف.

طلبهم أنْ يمثلوا بين يديه، حال وصولهم من الشام. لم يتوانَ عن تأجيل إشرافه المباشر على استعدادات العيد، فربما يكون الغد أول أيام عيد الأضحى.

طلبهم، وكأنه يريد منهم قراراً يبنيه مما سمعوه من الخليفة أمير المؤمنين، قبل أن يغتسل أيّ منهم من وعثاء السفر الطويل.

وقف أمامهم دون أنْ يسند مرفقه على كرسي الولاية؛ طلب منهم إبداءَ الرأي، وأنْ لا يتباطؤوا في إخباره بكل ما سمعوه ورأوه من الخليفة. أن يسمعوه تلك الكلمة المختزلة التي تقضي بفك الحبيس. لا مواربة، بلا تلكؤ، وأنْ يعيدوا عليه القول، مرة وأخرى. لكن الزمن النزير الذي يملكه، أخذ ينساب من بين أصابعه، كأنما كان كل حرف يمرر به أصابعه على قبضة النصل المعلق إلى حزامه: فبات الطريق عليهم إلى باب الخروج أبعد طرق المعمورة طولاً، برغم أنَّ الغرفة التي توسطها كرسي الإمارة لم تزِد مساحتها على عشرة أذرع.

لم تكن مفروشه بفراش جيد كغرفة الديوان، حيث طنافسها ووسائدها العديدة الملونة، موزعة بانتظام على أرائك متواصلة،

واحدة بالأخرى، وأرضها أيضًا لم تكن مثلها قد فرشت بمختلف أنواع السجاد الكبير المزخرف، وكذلك لم تتعدد فيها محامل الشمع الفضية في الوسط والأركان لتبهر كل ضيف، أو عابر سبيل..

غرفة كرسي الإمارة، صغيرة، أرادها غامقة الجدران، بلا نوافذ، ينيرها كانون صغير نزل بسلسلة حديدية من وسط سقفها.. خلّف ظلاً متراقصاً على الأرض، بقيَ يصل إلى الباب الخشبيّ الثقيل الذي كان يصرّ صريراً غامضا إذا ما فتح أو أغلق، يزيد من الخوف خوفاً.. كموت راعف.

قبعت تلك الغرفة الصغيرة، في ممر مجاور لغرفة الديوان الأميري الكبيرة، وكأنها اختيرت لتكون أصغر غرف القصر، غرفة مهيبة لا يخرج منها أحدٌ إلا بإشارة حاسمة من يده.

يؤكد على الحاجب المقيم وراءها أنْ لا يفتحها إلا بإذن منه. حيث استقر خلفها رجل ينظر إلى داخلها من ثقب فيها، لا تعنيه سوى إشارة الأمير، بفتحها. غرفة يتداول بداخلها أدق وأخطر قراراته ممثلا لدولة خليفة المسلمين.

أحسّوا أنّه قد حسم الأمر عندما طلب التأكد:

- متأكدون من قول أمير المؤمنين "أما زال حياً"؟!..

أكّدوها وقالوا:

- "بلى يا أميرنا ذلك ما سمعناه من مولانا الخليفة"..

كأنما قد خرج منهم الثلاثة، صوتٌ واحدٌ. ولكنه لم يكن يتوقع منهم أنْ ينقلوا له تلك الإشارة، الحاسمة، والبينة بالحكم. كل ما كان يعرفه بأنَّ فريقاً من خيرة البلد قد تطوع للذهاب طلباً بالصفح عنه، لم يكن معارضاً مع الخوارج، كل ذنبه أنّه اختفى عن القصر الأموي مخلفًا فراغا أقلق الجميع. ولم يقبل أية دعوة للعودة إلى الشام، ليقيم فيها معلماً لأبناء الخليفة، من بعد أنْ أجاد تعليم أبناء غيره، ثم غادر الشام سرّاً قبل أربعة عشر شهرًا.. دون أنْ يعلن عن وجهته، ثم انقطعت أخباره، لكنهم أحسنوا تعقبه خطوة بخطوة، والاستدلال إلى مكانه..

- "قضي أمره"

لم يجرؤ أحدٌ منهم أنْ ينظر إليه، وهو ينطق تينك الكلمتين، اهتزت أبدانهم هلعاً، فهم يعرفون بأنّه قد وصل بهم إلى الإذن بالمغادرة. حيث بقي كل منهم في قرارة نفسه يحمد الله على الحياة الجديدة، التي وُهِبوها.

أعاد القول بصوت مرتجف:

- "إنْ كان قد قال ما تقولونه فقد قضي أمره والذي نفسي بيده"..

الهلع أخذ منهم مأخذًا وتسارعوا بالخروج.

كلٌّ منهم راح باتجاه مختلف عن صاحبه، بلا التفات، أو تبادل نظرة.. كأنما يحسبون أنّه بقي يدقق النظر فيهم، ويتابعهم، كي يستقرِئ

كل ما يبدر منهم، ويُؤوِّل ما يشاء من تصرفهم، وربما يعود صوته، فيطيح برؤوسهم الثلاثة، دون هوادة..

لم يكن يرحم إطلاقاً، وإشارة منه كانت تكفي لحصد عشرات الرؤوس في لمحة. لم يسبق له أنْ تراجع في قرار ارتجل من قبل، كما لا تمنح عينه فرصة لأحدٍ معاودة النظر إلى وجهه، نظرته تخرق عين من ينظر إليها.

دائما هناك وصية من دائرة حراسه المقربة، لكل من يمثل بين يديه أنْ لا يرفع رأسه عن الأرض، وأنْ لا يقاطعه عندما يبدأ بالكلام، ولا يبدأ بالكلام حتى يأذن له..

لم يسبق لأحد أنْ وصف عمامته البيضاء المزينة بالقطع المتلألئة..

- اللعبة لعبة تأويل معانٍ؛ معنىً أبعد هو الأشمل بعد المعنى الأقرب المحدّد.

3

أنْ تكون بصحبة حمار، ولا بدَّ أنْ تسمعه مواويل ليلك!

4

لن يدخل إليه حارس بابه.. أحدًا، إلا بإشارة الدخول، فعرفوا أنّه يودّ أنْ يبقى وحيداً كعادته.

حيث نزل من كرسي الإمارة منزلقاً إلى الأرض، دون أنْ ينتصب واقفاً، نزل منسرحاً بليونة، مسندًا ظهره إلى قوادم الكرسي، وجلس دون أي فراش، بعد أنْ أسدل عمامته على عينيه.

لا يريد أنْ يرى المكان من حوله، متناولاً تفاحة من صحن مليء بمختلف صنوف الفاكهة.

ثم أخرج النصل من غمده، ذاته الذي يبقيه مدسوسًا في زناره، لا يفارقه أبداً. بعدها وضعه إلى جانب الصحن الكبير المليء بمختلف صنوف الفاكهة.

تناول المصحف الشريف، مقبلاً إيّاه، ومقربه من صدره، حمله في يده الشمال، لا يود أنْ لا يبعده عن قلبه.

بعدها التقط بيده الحرة، تفاحة حمراء قانية اللون، ودحرجها على ساعده الأيمن، مُفلتها من قبضته، لتنزل كأنها تعرف طريقها حتى عضلة يده، وبسرعة بسط لها ذراعه على امتدادها لتضربها فتطير في الهواء إلى أعلى، وسريعاً بخفة متدرب، يتناول النصل، بسرعة خاطفة ليضرب التفاحة الطائرة، ويفلقها إلى نصفين، ويلقفهما بيده الأخرى كما الساحر..

يكرر لعبته كل ما ضاق له صدره من مسألة حيرته، يعاودها رغم صعوبتها، يحاول بها، تتطلب الدقة، وكلما أجادها بيسر استبشر خيراً..

5

انبثقت أمامه بملابس فضفاضة، بلون زهري جذبه إليها، يحركها نسيم طيب، يفوح منها عطر أنوثة فياضه، لم يسأل حراسه من أين طلعت إليه؟.. كأنما هزتهُ بفيضها هزاً، وأسكتته عن مواصلة خطوه. ولم يسألها من أنت؟ ولكنه أشار إلى حارسه أنْ يتركها، لتقترب منه أكثر. يودّ أن يعرف سرّ الومض الطري الذي أشرق من عينيها الشهلاوتين، كأنما صار الممرّ بنورها أكثر زهواً، قطعت عليه الدرب الذي يعبر من غرفة كرسي الإمارة إلى غرفة الديوان ببهجة، وبطيبة كأنما كان بحاجة إليها. عيناها الواسعتان غرزا في متنه رمحين من الاندهاش، واللذة. حملا سؤالاً واحداً، لم يبتدئ، طالبها أنْ تقترب أكثر، كاد كالمتشوق إلى لمس جوهرة نفيسة، ولكنه الحذر يقيه في أغلب الأحيان من المهالك، فعدل عن رغبته، وطلبها أنْ تقترب أكثر.. ليسمع همسَ صوتها الذي أيقظ فيه حسّاً عميقاً لم يخضه منذ زمن طويل، ما بال جسده تحركت فيه الرغبة الفائرة، وطالبها أنْ تقترب أكثر بحجة أنّه لم يسمع ما تريد أنْ تقول، وفي كل مرة يطلب من حارسه أنْ يسمح لها بالاقتراب أكثر حتى باتت على مقربة ثلاث خطوات، وليست أكثر، فما تعود أنْ يجهر بما يعجبه أمام أيٍّ من حراسه. ولكنهُ في قرارة نفسه كأنه طال مصادفة شجرة طالما تمنى الوقوف إليها، لتسقط له الثمرة الناضجة التي يحب. شمّ فيها عطراً طيباً، ورأى منها مفرق العبير المنسرح بين فاكهتين مكورتين بنزق

امتلأ بهما القميص وكأنهما يريدان أنْ يستدعيا راحة يديه لتجوب في فيافي حلاوة نعيمهما، وأنْ يفك راحته من قبضة السيف المتعرق، منها. وجه منير، صاف يشعُ عليه جاذبية، وقد نزلت عيناه إلى خصرها الأهيف، مصقولة البطن، مدورة الحوض، محددة التفاصيل تمناها في كل امرأة، يودّ أنْ ينال دفق شهدها. لم يسألها من أين أتت، وكيف خرجت إليه من الجدار، ولكنه أمرها أنْ تسكت قبل أنْ تقول، وكأنما قالت ما يعنيه، وفهم قولها، وأشار إلى حارسه أنْ يدخلها، ويجعلها تنتظر في غرفة كرسي الإمارة، حتى يعود بعد حين. بقيت تودّ أنْ تقول، ولكنه أجّل سماعها إلى عودته.

6

- الأول أقل من الثاني معرفة بربه، قالوا كيف، قالوا لأنَّ الأول يأتي على هواه، والثاني يأتي على عقله.

فكرة واحدة تسنّ قانوناً وتجعل لنا الإمارة، ولن تنتصر عليها إلا الفكرة المشككة في عمقها، فيجب علينا حمايتها، من فكرة مشككة. فلا ينفع إلا السيف في مقارعتها، الأفكار الجديدة دائما تأكل الأفكار البالية. لا حاجة لنا أنْ نقر جديداً، يزيح فكرتنا فتثبت تلك راسخة في عقل المجموع، سلطتنا فكرة نقوم عليها دولة راسخة بعقل مولانا الخليفة وحسب، العقل يحملها، وذاته السيف يحميها. القناعة تدفع الذراع فيزدهر علوّها.

7

لم يكن الوالي من محبي المساحات الفارهة. لا يحب أنْ تحاصره الأعين، أثناء تكلمه.

بالرغم من فصاحته العالية، يشكل عنده تلفظ بضعة أحرف بسبب فرقة واضحة بين أسنانه، بعض الإشكال في مخرج صوته، إضافة إلى أنّه لا يجيد لفظ حرف الجيم على طريقة أهل الشام، إلا على طريق أهل اليمن، ذلك كان عائقا نفسيا بينه وبين الآخرين، ويكره ما يودّ إخفاءَه.

تعمد أنْ تكون غرفة كرسي الإمارة مستقلة عن الديوان الأميري، وجعلها لا تتسع إلا لعدد محدود، تحسبًا لأسراره، وتركيزه.

اختارها لتكون صغيرة قياساً إلى غرفة الديوان الرئيسة التي يجلس إليها مع من يريده في حاجة. يقضي فيها معظم أوقات استراحته، مفروشة بالسندس العماني؛ طامعًا بقول قائل لا يريد سوى أنْ يقال عنه الأمير الذي ورث زهد أجداده..

- "لن تجد الكثير من الأتقياء إلا بين الفقراء".

8

في كل مرة يجد الوالي أنَّ ابنه يحتاج إلى الكثير من النصح، ممهداً لعمل سيفعله:

- *"أيّ جدل سوف أعتبره تجاوزا على سلطتي"*

بقي يشرح له أسباب عزله في السابق عن إمارة "مكة".. موضحاً درسه الجزل عن فكرة "الولاء المطلق"، التي تزيد الوالي ثباتاً في ولايته.

يومها أيقن لا بدّ أنْ يجعل من الناس حروفا لرسائله، رسائل الولاء المطلق يبعث بها إلى الخليفة أمير المؤمنين في "دمشق":

- وجدت ضالتي عندما خبرني أحد الموالين عن رجل شبه مجنون، يلف نفسه بالصوف الثخين، ويدور بين أسواق مكة، معلناً عن نفسه نبي الزمان، فقلت له:
- "فما علامة نبوتك؟"

فقال:

- *"قد أنزل علي قرآن"* .

قلت له:

- *"أسمعني من بيانك"* ، فقال:
- *"إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك ولا تجاهر، ولا تطع كل كافر وفاجر"* ..

بقيت متفكراً بأمر ذلك المجنون، رغم شتيمته لي، لم يكن إلا مسكينا تسكته وجبة طعام، لكن جنونه جعله يجرؤ بين الناس على نظام طاعتنا، وقد يسنده من يريده أداة تقوض وحدة كلمتنا، كهواء مسموم أصفر تنفث به أفعى، مشككا في سيادتنا، ولأجل أنْ لا

يستغل كدمية التي بداخلها أصابع لعدونا، فأثرت صلبه، ثم جاءني خبر لشاعر معه قد سخر بنظمه ذلك الموضع".

- *"إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، وأنا ضامن لك ألا تعود"*.

لحقته أيضا بخبر المجنون:

وختم القول لابنه.

- حتى وصل خبر المجنون والشاعر إلى الخليفة فاستحسن لي الصنيع..

9

موسيقى الكلام، إنْ لم تطربْك، وتطِرْ بك عالياً، ناقصةُ المرام.

10

أبقوه برفقة حارسين، بقيا معه يتسامران لا ينامان ولم يدعانه يغفو، كأنما ليس لهما أجفان ترقد؛ قد تطير رقبتاهما من بعد غفلة نزيرة، باتا معه كأنما يحرسان حياتهما.

- يصارعونك حتى لا ينتصر عليهم شكهم.

11

وما وصف العاشق لمعشوقه إلا عشقا أكبر بل أعظم من العشق كله.

مصنف/ ب/ م2: نوع الورق: بردي/ العربية/ المؤلف: محذوف

1

أحب التجوال فجراً، ولم أبطلها يوما، من عادة، كنتُ أقف وأملأ تنفسي من هواء نقي في مدينة مزدحمة بالعمالة، ينزلها ناس من كل مكان من أهل الأرض، أسواقها تموج فيها حركة عظيمة.

أجمل اسم لمدينة هو اسم المدينة التي تولد فيها، اسم يطاردك بنغمة سحرية لا مناص من أنْ تسمعها في كثير من الأحيان بين ما تسمعه يوميا من الكلمات المتداخلة، كوقع جرس (نيسابور[4])، يعود بي الاسم إلى طفولة، حبال الذاكرة تزلقني إليها، سرعان ما تربطك سلاسل وحبال، ولن تفلت من لذة ذلك التذكر، سهل عال مسور بالوديان،

4- وذلك نسبة إلى "سابور الثاني" الذي أعاد بناءَها للمرة الثانية في المئة الرابعة للميلاد ويعني اسمها "عطر سابور الطيب"، وهي في حقيقة أصلها مدينة مليئة بالعطور التي تفوح من أثمار بساتينها وقد سميت بـ"أبر شهر" ومعناه مدينة الغيم.

وتحيط به الغيوم شتاءً، وكأنه مغمس بالبياض[5]. تفاصيل أخرى تموج بي، تطوح بي، في حيثيات الزمكان..

بعدها منعني والدي من ذلك التجوال. بسبب ما حدث لأحد أشقائي. يوم تعمدت عصبة اختطافه وإيذاءه، ولم تطلقه، إلا بعد أنْ سلمهم والدي أحد المخطوطات التي كان يعمل عليها. إذْ كان يحتكم على مجموعة كبيرة من المخطوطات الخاصة المحدود تداولها والتي تخص بعض الملل أو النحل الدينية.. مخطوطات نادرة، أغلبها محظور، يصعب تداولها الا بين النساخين، كان يعمل نسخه منها لنفسه، ويحفظها في مكان آمن.

ما زالت صور تلك المدينة عالقة في الذهن، بالرغم من أنّني ودعتها مع شقيقي في رحلة طويلة إلى الشام. وتلك لم تكن رحلة يسيرة، بل حافلة بالخطر، بصحبة قوافل التجارة، مدة ثلاثة أشهر،

---

5 – في الماضي حضروها الأكاسرة وعمروها بفتنة ذوق حيثما كان ملكهم يعشق اللعب على رقعة الشطرنج، وجعل منها في كل ضلع ثمانية مربعات.. كل مربع فرشه اللون الأخضر الفاتح من أشجار الزينة التي يشبه ورقها ورقة شجرة التفاح، وتعطي رائحة ليلية طيبة، وبجانبها مربعٌ آخرَ بلون أخضر أغمق. حتى أحبها الناس وكثر سكانها معظمهم من التجار فاتسعت رقعتها وعظمت ثروتها في أيام مملكة "بني الصفار" حتى صارت أجمل مدن "خراسان"، وصفت بأصح هواء وأفسح فضاء وأرشد عمارة من "نيسابور"، وبات تجارها أهل ثراء، وتؤمها السابلة والقوافل كل يوم، وانتفع منها بائعو العسل الجبلي كما ارتفع منها أصناف الثياب القطنية والحريرية التي ناهضت بضائع كشمير وبات منها يصدر الخير الوفير إلى سائر بلدان المشرق، كون طرقها سالكة واضحة.

عبرنا فيها عشرات الأنهر، ومرتفعات في سلاسل جبال عالية. مرت علينا مروج كثيرة وفصول كثيرة في المكان المناخي الواحد. كنا نساعد من يصحبنا جميع المهام، في الحمل والتحميل والحماية.

ولم نعبأ إلا بما نحمل سرّا، ففي جعبتنا كنا نخبئ مخطوطًا مطوياً مئات الطيات، جهلنا محتواه، أول الأمر. كانت أوراقه متصلة ببعضها البعض عند الرأس، كل ورقة لا يزيد طولها على ذراع وارتفاعها ذراع واحدة.

عندما فتحناها أخذت مسافة تزيد على العشرين ذراعاً، وكان مكتوبا على الوجهين مليئًا بالكتابة، والتي بدت من صغر حجم حرفها الصغير كأنها مصبغة بلون واحد، وهو لون الحبر الصيني الذي كان أغلى أنواع الأحبار لأنه يعلق برأس القلم، وسريع الجفاف، وغمسه منه، لرأس قلم، تكفي لكتابة عشرات الأحرف.

2

قضيت حياتي كلها مع المخطوطات، أو بينها، اقرأ فيها قبل أن أفهرسها، كأنما أعيش معها، أبحر فيها إنْ كانت بها البحر، أو أقطع فيافيها إنْ كانت البيداء القاحلة، لا أحتاج إلى أمل أنْ تعلمني من فكرها.. حروف حيّة تسعى إلى نفسها، تغمرني بالعمق السحيق، وتظهرني إلى السطح الباهت..

بعض المخطوطات تعطيني من حيواتها، وحياتي لم تكن إلا فيها، أتنفس عبرها، حياتي كلها منها، سطور حياتي أقرأها في المتون فأحيا بها، وما أدونه يكون في أصله ناتجًا من حقيقة معدلة بالخيال، الحقيقة لا يمكن أنْ تثبت، ولا أنْ تصدق إنْ لم تكن متربعة على عرش صورة متحركة، تلك الصورة ناتج كيميائي من التباهل، إما أنْ تكون الحقيقة ناقصة دون خيال، أو يكون الخيال ناقصا دون حقيقة...

كان والدنا من بين أحد النساخين المهرة، وحظي بشهرته من جرائها، حيث تكيفت عنده علاقات وثيقة مع ناسخين كثر في الشرق والغرب.. شرقاً في التبت الصينية أو في دلهي الهندية كما له في البصرة، والكوفة، ودمشق.. في الشرق والغرب أو الشمال والجنوب..

تعلمنا منه باحتراف أدق أسرار المهنة من تحضير الحبر وبيان درجة غمقه بنسب حسب حجم الحرف المراد رسمه، وحسب مهارة طارق الورق، الذي يجعل من سطحها صقيلاً ينزلق عليها القلم بيسر. الورق يتطلب مهارة في التحضير، ومن عجنه وفرشه بواسطة عصا اسطوانية غليظة تدوسه بعناية حتى يصبح رقيقاً، يعامل كما يعامل الخباز خبزه. يترك ليختمر ومن ثم إعادة تمرير الاسطوانة الثقيلة فوقه، مرات ومرات يتساوى سطحه ليترك بعدها يجف مما حمله من ماء، وقبل أنْ يكون جاهزا، يحتاج إلى طرق بمهارة يجعله صقيلاً، بواسطة مطرقة خفيفة مصنوعة من الخشب، تغمس بالماء، حتى تتشبع، لتعطي الورق طراوة ثم بعدها يتساوى وجه الورق، يبيت صقيلا، ويترك

يوما أو أكثر حتى يجف. ويكون جاهزا للنسخ عليه بواسطة قلم من القصب، هو كذلك يتطلب مهارة في تهيئته، من أجل أنْ يحمل المزيد من الحبر، ويجري بيسر على السطح الناعم، الحلو الملمس.

3

في طفولتنا تعلمنا فنون اللعب بالسيف الخشبي، بإتقان.

ايام طفولتنا كانت أغلب المدارس تهتم بالقتال مكملاً للعلم. وكنا جميعا نحب لعبة الشطرنج، وكان ذلك الرجل يشترك معنا بحب اللعبة، فكانت لعبة الكبار والصغار، التنافس بين عشاقه يتوارثهم جيلا بعد جيل..

استهوتنا كثيرا لعبة الشطرنج إذْ كانت تمنح التبحر في الخيال، لأنها تروقنا جداً. لعبة لها من الأسرار التي صارت تجعلنا نجابه مشاكلنا اليومية على مستوانا المحدود، ونتعلم كيفية تحليلها، وباتت معظم افتتاحيات أشهر الدسوت الذكية محفوظة *"لأنها كانت تعلم الرجل استراتيجيات تحقيق مآربه"* حسب ما كان يؤكده والدي وصديقه.

حلمت أنْ أدوّن مخطوطا بشأن ذكريات تلك الأيام، مع اللعبة الأهم في حياتي، لعبة تعلمني كيفية أن أسبق الزمن وأحرك خيالي وأنقله إلى البعيد، أتلاعب به، ومهامي، تعلمت أنْ أسلسلها دون مغالطة، فالشطرنج يعلمني أنْ أعرف كيفية التسلسل لعب اللعبة في توقيت وزمان.

ثمة توقيتات فيها إذ لم تكن موضوعة على جدول فإنَّ ذلك يعني خسارة، القطعة يجب أنْ تستقر في مربعها المناسب..

نحتفي كثيرا بالفائزين وتحدياتهم. تعتبر لعبة فرسان، حيث لا يمكن أنْ تكتمل فروسية أي فارس بالقتال وحده.

4

المخطوط الذي طلب منا والدنا إيصاله خفية إلى "دمشق"، كان عبئاً ثقيلاً، مثيرا لفضولنا، ولكن شقيقي قد اشتدّ فضوله أنْ يعرف محتوى المخطوط، لما بات الطريق آمناً وقرابة أنْ نصل إلى "الشام"، وجدت شقيقي أقل صبراً مني، لمعرفة مضمونه، ومجازفا بفتحه، مذيلة بهامش عليها، "نسخة مصحف عثمان". وما يسمى بمصحف "طشقند".

شقيقي له خبرة العمل على المخطوطات، وينافس كبار النساخين معرفة، قام بنسخ مخطوطات من لغات عدة إلى الفارسية، لغة عريقة تجتمع فيها معظم لغات الشرق أجمع.

مدينة علم يحضر إليها رجال علم باحثون في دقائق علوم الأديان، والمعتقدات.. طلاب علم وفنون وآداب. فكان سوق النساخ يعج بهم، ويتطلب من عمال النسخ معرفة بلغات رئيسة كالفارسية القديمة والأوردية القديمة والسريانية القديمة.. جميع لغات المصادر الرئيسة،

بعضهم كانوا يأتون طالبين كتبا في "الهندوسية، والبراهمامية" أو "الزرادشتية"، وغيرها من أديان الشرق العميق.

وفي أول نقطة استقرار وجدت الفضول قد تمكن منه كثيرًا، وأشار علي أنْ أفتحه، ولم يحذرنا أبي من مغبة فتحه، رأينا في ذلك سببا في إشباع فضولنا، في تصنيف المخطوطات وكيفية طرق تصفيفها وطيها لتسهيل حملها ونقلها إلى مسافات بعيدة، وإخفاء حملها، النساخ يتعامل مع أسرار عقائدية دفينة أو مقموعة بعضها يتطلب درجة كبيرة من السرية والكتمان، وأغلبها تتطلب الكتمان، فيجب أنْ تكون المخطوطات سهلة الحمل..

كل مخطوط له أسراره، وشفراته.. من أجل معرفة محتواه، كأنما كان ضمنًا مسموح لنا الاطلاع عليه. كان لتلك الرغبة ثمنٌ مضاعفٌ، حيث فتحنا طيته العجيبة ولم نتمكن من إرجاعه كما كان في طيته كما سلمها لنا والدنا. حوى وجه الورق مخطوطاً بلغة لم نألفها، ووجهه الثاني نسخة كاملة من المصحف الشريف نسبت لابن مسعود، تابعة لوقف (شيخ بص مام[6]). لما فتحناه لم نعرف كيفية تصفيفه بالطريقة التي كان عليها، ولما حاولنا إرجاعه لم نستطع، فلم يكن أمامنا إلا أنْ نقبل على حمله بعد أنْ زاد حجمه، حيث بات أكبر.

6 – فص مام تعني ابن العم..

أخبرني ما سبق له معرفته حيث فتحت المدينة صُلحاً بدون قتال، وفي عدة أيام بنى فيها أول مسجد للصلاة [7]، وأيّ بناء كان يستهوي أهل "نيسابور"، شاركهم بعض البنائين، وبات عاجلاً بأكمل وجه. سرعان ما انتصبت له منارة وحديقة وباحة واسعة تضاهي أيّ معبد أو كنيسة وأيّ مزار، فليس لهم أي تعصب ديني، وكل شخص يعرف معرفة واضحة الكثير عن أسرار الأديان، جدلها كونها فيها قانونٌ يستقيم به البشر، خلقاً، ويحفظ الحقوق من الطمع والجشع والاستغلال. حيث كانوا لا أحدَ فيهم يعارض في معتقد.. ولما جاء الإسلام لفتح المدينة رحب به الناس واستقبلوا قادته بلا أيّ قتال، ولكن بعد سنتين، ظهرت من البعض عقائد متطرفة تعارضت مع العقائد المتزمتة الأخرى، وأغلبها ديانات تنبذ الاستعلاء على الأديان الأخرى، حيث بات مفهوم الدين لتبسيط الحياة وتنظيمها حسب كل معتقد بدينه، وأصوله، ونهجه الذي يحب.

تناصرت شجارات بين الأطراف المزيجة، وتطورت إلى أنْ انتفضت المدينة بكاملها، وقررت طرد أتباع الدين الجديد، وقد فرضوا عليهم الحظر، على أنْ يقتصر كل دين داخل مكانه. وحدثت انتفاضة أدّت إلى طرد الأمير العربي، ويقال إنّهم أوصلوه سالماً إلى

7- عرفت من شقيقي أن قد قرأ عن "الشيخ فص مام". كان خطيب الجامع الذي عينه الخليفة الراشد عثمان بن عفان عام 31هـ بأمر من واليها "الأمير عبدُ الله بن عامر بن كريز".. عند الفتح الأول لمدينة "نيسابور"..

خارجها دون قتال كما دخلها. أرادت أنْ تبقى "نيسابور" مركزا تجاريا مهماً يقصده القاصي والداني[8].

5

وكأن الكلمة عندما أنسخها من أيّ كتاب، أمثلها صورة، أراها حرة تمشي لوحدها حيث تريد، وليس حيثما يراد لها. اعتدت أنْ أمسكها بكل جوارحي، فلا أخاف مما وراءها، أصير قابضا عليها بكل جوارحي وأعرفها معرفه الذكر لأنثاه المطواعة. أقترب منها بلمسات متتابعة فلا أخاف حتى أستلذ بها.

6

دخلنا ليلاً إلى مدينة الشام حيث هواؤها النظيف مختلفٌ عن كل بلدان الدنيا التي مررنا بها. انتهت رحلتنا الشاقة بأمان، رغم الصعاب. بقي المخطوط مخفيا، نتبادل حمله.

8- وبقي يخبرني: لما استلم أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" الخلافة أرسل جيشا بقيادة "الأحنف بن قيس"، وبقي الوضع كما هو عليه حتى انتفضت للمرة الثانية على حكم "عثمان". فأرسل إليها "عبد الله بن عامر" فأعادها، وأعاد بناء جامعها "عمرو الصفار" بأربع رحبات وقوم سقفه بقبة تشبه مزار قبب مزارات "الايزيدين" تدخلها الشمس من كل جانب ومئذنة عالية من الآجر، يدور على صحنه ثلاثة أروقة وزوقت حيطانه بالقرميد المذهب، كلها مشيدة على أعمدة من الرخام.

جعلنا ذلك المخطوط نقاسي كثيرا في إخفائه، وحمله. كان أمانة ثقيلة وكأنما نحمل به حياتنا. كنا مصرَّين على إيصاله سالما حسب وصية "أبي"، وقد تقاسمنا حمله، تارة هو يلفه حول خصره وبطنه وظهره، وتارة أنا متحملين حرارة الأمكنة التي مررنا حيث طالت رحلتنا لأكثر من سبعة شهور بأيامها ولياليها نحمل متاعا نزيرا من الطعام، ولكننا اعتدنا الظرف العابر ومشقته حتى النهاية..

عندما وصلنا دمشق صادف المخطوط أنْ يكون مع شقيقي، فأظهره بدين، صغير الرأس، بجسم مدور، ويشبه جعدة الحبل، تلك التي تنزل إلى الأرض من عماد الخيمة، وتكون ملتفة حول بعضها. كان مظهره مضحكًا كأنه يحمل كرشاً كبيرة تتقدمه، وتثقله مؤخرة بارزة من جراء حمل كان يقاسي منه.

عندما استوى أمرنا وانتهى مطافنا عند شيخ نساخي مدينة دمشق الذي يسكن في حي اسمه "باب توما"، ولم نجد صعوبة في إيجاده، كان ينتظر منا ما نحمله بلهفة. بحسب ما حفظناه من وصف من لسان "أبي" لكافة تفاصيل طريقنا. وجدناه مرحبا بقدومنا. يعرف عنا الكثير، ولم نجده يسألنا عن أسمائنا إطلاقاً، لكنه ابتغى لنا أسماء أخرى، غير أسماءنا إلى صفات فسمي شقيقي "الجعد" بما رآه شكلا ممن يعاني سمنة وترهلاً واضحين. كان يلف حول خاصرته فاختفت ملامحه تحت الشكل الكمثري المجعد، أما لي وهبني اسم "النحيف" لنحافتي وطول قامتي..

سلمناه المخطوط حسب وصية والدنا.. ثم جعلنا نقيم في دار له مجاورة لداره. لم يتجاوز السبعين من عمره، ولكنه صاحب وجه باسم يهلل مبسمه بالترحاب. كان الرجل رئيس نساخي البيت في مكتبة أمير المؤمنين لحُسن نسخه وسعة معرفته باللغة الأوربية وخصوصاً اللغة السريانية، والتي كانت اللغة الباطنة لأغلب أهل الشام. أحبه الخلفاء الذين توالوا على الحكم، ولم يسلم إلا في عهد متأخر، لأجل أنْ يضمن بقاءه في منصبه ويرث ابنه من بعده منصبه أمينا للمكتبة.

ولم نكن يوم وصولنا، أفضل عماله، ولكننا اكتسبنا خبرة أكثر فيما بعد في كيفية تحضير الورق من مواد أخرى غير التي عهدناها، وطرقاً ابتدعها البيزنطة لصناعة الورق من لحاء الشجر، وشجرة السدر، والتوت..

باتت لنا ألفة مع جميع العاملين في المَنْسَخ، ولم نكشف أننا شقيقان إلا أننا بقينا ننام في غرفة واحدة،[9] فأعطونا من علمهم ما لم يعطوه لغيرنا، وبقينا نعمل معه بإخلاص في النسخ وكان في كل مرة يكتشف مهارة شقيقي وحبه الدقيق لما يقرأه ويكتبه..

تآلفنا مع تلك الأسماء إذ كان ذلك التغيير بقصد أنْ لا يستدل علينا حيث كنا نحمل إليه كنزا ولم نكن نعرف به. بقي حالنا كما هو

9- المنسخ: بيت خاصة بالعمل على النسخ حيث احتوت على عدة غرف كل غرفة تخصص عاملها بشيء.

مدة عامين ثم انتقلت للعمل مع ابنه الذي أرسله إلى "الكوفة" بعد أنْ تبينت أنّها مدينة تتنافس فيها الأفكار، ولسبب واحد ميلي للكتب العربية أكثر من الكتب الأجنبية. صحبت ابنه الثاني بينما بقي ابنه الأكبر مع شقيقي في "المنسخ الدمشقي"، وكأنما كان مهيأً لاستلام منصب والده إنْ وافته المنية.

بقينا نعمل هناك بينما الأخبار لم تنقطع ما بيننا وكانت تصلنا أولاً بأول، بواسطة كل عارف، أو صديق.

بعد افتراقنا بقي يرسل لي خطاباته، فأرد عليه، بمثله. يكشف لي عن حبه للتفكير الفلسفي والخوض في غمار الفلسفة.

الحي الدمشقي الذي قطنه أغلب سكانه من النصارى، وتركت أثرا معرفيا في نفسه. بقيت نفسه مرتعا خصبا لملتقى وتداول معظم المخطوطات لجميع المدارس خاصة كتب الفلسفة اليونانية والرومانية القديمة، كأنما اشتبكت الآراء فيها، وألهبت عقله وتناظرت، كلما اشتغل فهي حاضرة بالفلاسفة وآرائهم، حتى طبعته، وبات مرجعا معرفيا يستدل إليه من نور الفكر الذي يعرف. كأنه كان يكتب ألغازا مثلا:

- "أنا والكلمة حدّان متباعدان، لا نقترب إلا عند كل تأويل".

كتب لي مرة: الفكرة، حتى وإنْ قرأتها آلافا من المرات، ولم تنشرها اعلم أنَّك قد حرزت جنة العقل، ونبذت ظلام النقل، فقالوا وما

أصلها، حتى قال لأنها تشعل فكرة عتيقة بالية، لتضيء درباً يصلك إلى الغد، ومن أضاءك، قد أفادك، ومن أفاد كائنا زادت معرفته بالله العظيم.

كتب لي: بدا لي ابتعادك عني شاسعاً، وقد خلّف فيَّ فراغاً كبيراً لم ينافسني عليه إلا الانكباب على عملي، ولم أرفع رأسي عن كتاب إلا لأخذ غيره، أكثر من شهرين، لم أرتح فيهما. عهدت الغربة سقيمة كالغول المارد العملاق تطحنني في عقاب مقيت...

رأيتك في الحلم نلعب الشطرنج، كنت الغالب لك، والمستفيد الأكثر إصراراً على الفوز، لعبة الشطرنج تشبه لعبة السيف.. كل خسارة فيهما تخلف موتًا، إنْ خسرت الشاه يعني أنك خسرت العقل والقيادة.

ليل دمشق مؤنس جميل، يعج في حارتنا بلعب الأولاد، لم أرَ أحدا منهم يلعب الشطرنج على الإطلاق، ولكني ليلة قبل البارحة استطعت أنْ أجرؤ على طلب علبة منه كي أعيد عليه نصب أحلامي وذكرياتي، وكما أيضا استطعت أنْ أتعلم كتابة النوطة الموسيقية من رجل جاء إليَّ من مصر، لا أظنه من أصل عربي، برغم إتقانه الحروف بجرس وقع حنجرة أهل الشام، ولم آخذ منه ثمناً لما عملته له، بالرغم من أنّه كلفني بكتاب بلغت صفحاته أكثر من أربعمئة، وقد خططته له بالخط الحجازي الذي أتمته أكثر من غيره، فقد سمعت بأنك قد

ابتكرت لأهل الكوفة خطا فيه زخرفٌ جديدٌ أسميته بالخط الكوفي، (اكتب لي رد رسالتك علي بهذه واجعلني أستمتع بما صنعت يداك من عبقرية كهدية عظيمة لمدينة الكوفة)...

كتب لي: كذلك تعلمت قراءة النوطة الموسيقية، وهي بالأصل فرعونية كشفتها منسوخات تعود لأيام قبل أنْ يأمر عمر بن الخطاب بإتلاف مكتبة الإسكندرية العظيمة، تقول الشائعات بأنَّ أصحاب الحمامات في تلك المدينة ما زالوا يختزنون كميات كبيرة من كتبها، إلى يومنا هذا، بغية إحراقها، وما زالت تُهَرّب منهم منسوخات من كتب عظيمة وصلني البعض منها، وقفت عليها ليلاً ونهاراً وأنجزتها تعود لأفلاطون وإفلاتين وأرسطو، مؤلفات كثيرة صارت تصل عندي دون أنْ أطلبها، يأتون إليّ بها لأنسخ عنها نسخا تلو الأخرى، بمحبة كبرى وصرت أتعلم منها حرية العقل وفنّ الخطابة وأصل الشعر...

كتب: اليونان يا شقيقي من أعظم البلدان وأحلم بزيارتها. لكن العمل يأخذني، والتمرين على العزف على آلة العود يأخذني.

كتب: أعمل على نسخ مخطوط اسمه (يحكي تاريخا عجيبا) طالما تمنيت لك قراءته، سوف أنتهي منه بعد عيد الأضحى، وأجعله يصلك في أقرب فرصة..

7

(الوالي الفذ، الوالي العبقري، الوالي الملهم، الوالي المهوب، الوالي المنقذ، الوالي البطل، الوالي الشريف، الوالي الغضنفر، الوالي الشريف، الوالي الغيور، الوالي الغالي، الوالي الحبيب، الوالي القديس، الوالي المعجزة، الوالي اللوذعي، الوالي التاريخي، الوالي زعيم الزعماء حفظه الله ورعاه من كل مكروه).

الكوفة أثناء صلاة المغرب 9 ذي الحجة. سنة (119هـ)

1

في اللحظة الأخيرة، فاجأهم الوالي؛ إنه لا يودّ أنْ يتقدمهم صلاة المغرب، كعادته التي نادرا ما عدل عنها. بل تعمد أنْ يصير متأخراً قليلا إلى صف متوسط بين الناس، دون شرح لهواه سوى نظرة منه إلى شقيقه، فهمها، وجعل استعداده لأجل الصلاة بديلا.

بينما بقي متفكراً يراوده إحساس التشتت، كأنما لا يستطيعُ التركيز، بما شغله من أمر طارئ عاجل.

لم يسمح لأحد من قبل أنْ يصلي بهم غيره ما عدا شقيقه.. حيث لا يعترضه يوماً أحد في أوامره الصارمة.. على امتداد إمارته على المشرق كله، كأنه ترك شقيقه صاحب الوجه المنير، يعتلي درجات المنبر التسع بهمة نشيطة.. بينما بقيت الصورة تتراقص في مخيلته، حاضرة، وجلية. تزاحمه في تنفسه، مشغول الذهن بصورة أمّه التي بعثت إليه، ترجوه أنْ يترفق بـ"مؤدب الفتيان الجليل"، كما يحلو لها أنْ تسميه.

تمنى لها ذلك محبة في ترضيتها، في الوقت الذي بات لا يحتكم على قرار قد أُقرّ. كان عارفاً منذ البدء أنْ الموضوع سوف يتطور، إلى غير ما

يرجوه بعد أنْ علم الخليفة أمير المؤمنين بتفاصيل أخباره، فقام مرسلاً التفاصيل الدقيقة إليه في دمشق معرفا له عن كل ما سمعه وعلمه عنه، وكذلك نقل له أيضًا أخبار الذين تعمدوا إخفاءه عن عيون شرطة الشام، كل تلك السنين.

بات اختفاؤه أشبه بسؤالٍ مريب، أثار الشكوك بكل من معه. خاصة عندما وصلتهم أخباره بأنّه وجد متخفيًا في بيت كوفي متواضع تابع لأحد "الخوارج" الذين كانوا من أشدّ الناس عداوة للخليفة أمير المؤمنين.

لم يصبر على تكليف أحد من عسسه بإحضاره، بل، كعادته خرج إليه ليلاً، وعاد به مكتوفا، ولم يجعله في سجن الكوفة، بل أمنه في سجن خاص، وبحراسة مشددة.

كان ذلك قبل أكثر من شهرين ثم أرسل أخباره إلى الشام، من بعد أنْ عرف السبب الحقيقي الذي وراء ذلك الاختفاء، وسبب تواجده في ذلك المخبأ..

بقي ذهن الأمير مشغولاً برغم استعداده لأداء صلاته، وكعادته لم يضع سلاحه جانبا، حيث يبقيه في زناره استعداداً لأي طارئ، وفي أيّ مكان. في الوقت نفسه كانت أوامره المشددة لا تسمح على الإطلاق لأحد أنْ يدخل بسلاحه إلى المسجد. أما هو فقد كان لا يتخلى عن حمل ثلاث قطع مخفية تحت ثيابه، ولا تكاد يتبين منها إلا قبضة سيفه،

تلك عادته التي لم يتخل عنها منذ أيام إمارته على "مكة"، ولا عن لبس "جوشنه[10]" تحت ثيابه البيض بغرض حماية بدنه من أي ضربة غل قد يكون عنها غافلاً.

بقيت تدور في ذهنه المعادلة يروم التوفيق بين أمه وهي التي لم تطلب منه طلبا سواه، لكسب رضاها بكل ثمن، لكن الأمر، اتسع كثيرا وخرج من طوعه، بات معقدا، ولم يكن بد منه إلا الوعد؛ أنْ يترفق به حتى نهاية المطاف.

أمّا شقيقه فكان يدرك خفايا الموضع الأليم، هو الآخر لن يسمح للأمير أنْ يعارض رغبة الخليفة، مهما كلف الثمن.

اتخذ الموقف مسارا غير ما يحبانه. منذ البداية، حيث كان بإمكانه أول الأمر أنْ يطلقه، أو يرسله إلى بلده، ولكن الموالين للخليفة من هناك أوصلوا وفدًا جاعلين في الأمر تهويلاً، مباشرة إلى أمير المؤمنين، ظنا منهم تلافي السوء المحدق من الأمير بمؤدب الصبيان. حملوها رسائلَ تطلب الرأفة.

اتسع الأمر أكثر من أيّ أمر آخر، ولكنه كان أكثر حذرًا منهم فلحقهم بقضاته الثلاثة، ليلموا له بكل التفاصيل، ويكونوا مع الداخلين إلى الخليفة ويعودوا إليه بالخبر اليقين، ولم يتوقع أحدٌ أنه سوف يقضي به مُحتّماً، وبلا رجعة.

---

10 – لباس يرتديه الفرسان البيزنطة في المبارزة وهو غالبا مصنوع من برادة الحديد.

- *"أما زال حيا"؟*

كانه فيه ملامة أيضا، تحمل رسالة "ما الذي أخرك في أمره؟"

رسالة صارمة، بكل يقينها، ما عادت تترك له خيارات أخرى، ولا سبيل إلى تأخيرها..

بقي يقوم ويقعد متفكرا في الكلام وكأنه يؤدي الصلاة أداءً، وحسب. نهض ثم رفع يديه ثم انحنى وبرك متحركا، متواليا مع حركات من معه. كان شقيقه منتبهاً إليه وكان يقسم صوته الرخيم بإيقاع ويراقبه بطرف عينه.. حتى انتهت الصلاة بالتسليم على الجانبين..

لكن شقيقه بادر بتذكيرهم: *اليوم أعيد عليكم خطبة والي أمير المؤمنين المفدى، ليست إلا تذكرة للعالمين، وفيها خلاصة وعبر، أوردها إليكم بمناسبة عيد الأضحى المبارك والذي ستعيدون به بإذن الله، يوم غد..*

كان متفوها يطيل بالأحرف ويناغمها، وكلّه انتباه لشقيقه، دون أنْ يغفل عنه لحظة واحدة. إنْ أراد المضي، أو التوقف عمّا بدأه.. ومضى يقول:

- *(يا أيها الناس، تنافسوا في المكارم، وسارعوا في المغانم، واشتروا الحمد بالجود، ولا تكتسبوا بالمطل ذما، ولا تعتدوا بمعروف لم تعجلوه، ومهما يكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها، فالله أحسن له جزاء وأجزل عطاء، واعلموا أن*

حوائج الناس إليكم نِعم فلا تملوها فتحور نقما، فإن أفضل المال ما أكسب أجرا وأورث ذكرا، ولو رأيتم المعروف رأيتموه رجلا حسنا جميلا، يسر الناظرين، ويفوق العالمين، ولو رأيتم البخل رأيتموه رجلا مشوها قبيحا تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار، إنه من جاد ساد، ومن بخل رذل وأكرم الناس من أعطى من لا يرجوه، ومن عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل منَ قطَعَهُ، ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته، والفروع عند مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو[11].

2

نور تلألأ من بين طائرين أوشكا أنْ يهبا بوجهه، ويطيرا به إلى عمق لذيذ لم يستشعره مع جارية طوال عمره، إلا معها، ولا بدّ أنْ يعود إليها. تركها الحارس تدخل غرفة الإمارة، بأمره، ولا يمكنها أنْ تخرج إلا بأمره. قرر أنْ يخلص من مشاويره العاجلة، ويعود إليها. ثمة حرقة من رماد السبعين، تمور لتشعل من بين الرماد. من أين جاءت؟ وكيف وصلت إليه؟

شفتاها كرزتان بالغتان، وشهوة خفية تموج تحت خصرها الأهيف البديع، كأنما أرادها أنْ تكون له ملاذ خلاص من كوابيس نهاره. لم

11 – ذكرها ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق.

يفارقه التفكير في سلسلة ذلك البياض الرخامي الصقيل بسحره. لم يكن مستعداً لشيء يوازي رغبة أنْ يعود إليها، وهي بذلك الجمال الآسر، الفاتن. أراد أن يتملى، قبل أنْ يسمع أو يقبل منها شيئاً، تمنى لو عرف ماذا جاء بها إلى طريقه، أيّ أمر سيحققه لها، فثمة رغبة فيه تواصلت بالإذكاء.

ترك مشاغله، وعاد سريعا إلى غرفة كرسي الإمارة، قائلاً لها:

- هات أسمعيني ما عندك؟

حرص أكثر أنْ يستوعب صوتها الأكثر غنجًا مما في صورتها المحتدم بالعصف، لم يكن إلا مستعداً لها، فقالت:

- بسببي يا مولاي سوف تقطع يد سارق لم يسرق، لقد تعود أنْ يعاودني ليلاً، ولما أمسكوا به أخبر حراس القاضي أنّه كان جائعا وجاء ليأكل عندي، وأيّ أكل يا مولاي. ثبتت عليه تهمة السرقة، باعترافه كاذبا منقذاً سمعتي. ويده التي أراحتني بطيبها لم تكن لتستحق القطع..

سألها "من هو مالكك" يا فتاة الطيب، قالت له القاضي الأول الذي خرج من عندك قبل قليل، فقال يقبض ثمنك الآن، وتكونين حرة لأزوجك من حبيبك يوم العيد، أشار إلى حارسه، فانحنى سمعا وطاعة، وتركهما لوحديهما في غرفة الإمارة. وهذه الليلة ستكون لي.. قبلت رغم أنّها امتقعت خجلاً. صفق لحارس الباب، فدخل إليه متأهبا، خذها إلى غرفة إعدادها. فأخذها برفق..

3

الدموع، والحسرات هي التي كتبت تاريخاً..

(بدت له كل شخصية تحكي عنه بمثل ما عرفته.. تقرير رئيس العسس يؤكد على أنه أجرم بحق الخليفة، وكان من الخوارج الذين يحرضون على النيل من سدة حكم البيت الأموي، برمته. واتفق ذلك على أنَّ رجال الدين كلهم أجمعوا على كفره، وزندقته التي تنال من الذات الإلهية، ووقفوا له في أكثر من موضع؛ أما التقرير المنتزع من زوجه فجاء حياديا يشير أنه فقط كان دفين مخطوطات، وحسب. ولم تذكر له سوء معاملة لكنه غاب عنها بلا أي عذر، وغيابه عرضها إلى مشاق جسام، وهي لم تر شرّا معه كما ذكر عنه، أما والدة الأمير فأوصت به خيراً، وأشادت بطيب خصاله، وحلاوة معشره، مؤكدة بأنّه هرب مظلومًا من القصر لسوء خليقة الأمراء الصغار)...

قالت أم الوالي تذكره:

- "أبدا لا تنسَ يا بني أنك قلت في خطبة لك من منبر مسجد الكوت"
- *(إن أكرم الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفوا من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل عن قطيعة[12]).*

12 – منقول.

يومها أرسلت إليه، من الشام، ترجوه بإطلاق سراحه، من بعد أنْ كان رفيقاً أمينا لابنها البكر، لكن مهامه كأمير لم تسمح له أنْ يترك كرسي إمارة "العراق"، ويسافر إليها في ظرف يضيق بالمنازعات الكبرى، إذ بلغه من أجهزة الشرطة، ثمة أصوات تريد تبديد القوانين الأموية، وتهدرها في منازعات هو لها بالمرصاد.. بقي مستعدا عندما نقل كرسيه من الكوت إلى الكوفة حتى تستقر.. وبدأ كما فعل في إمارته على "مكة" بإسكات الأصوات بحذر التي تودّ الاعتراض الشديد..

برغم أنّه لا يستطيع التخلي عن معاونة أقربائه، وخاصة شقيقة. الذي أرسله إلى أمّه، للاطمئنان عليها، ويعود إليه بمطالبها، دون أي تأخير، ومطلبها لم يزد على إطلاق صديق ابنها، وفاءً لذكراه.

ذكرت له رجاءها، من بعد أنْ عرفت أنَّ المعلم الجليل كان ضحية تلاعب سياسي بين ثنايا القصر، إذ خبرت أمره، متيقنة من براءته.. ولن ترضى لابنها إلا أنْ يطلقه، وحسب. معرفة له كولدها المفقود، الذي انقطعت أخباره. حيث كانت تلك الوظيفة، وبالاً عليهما، ولم تكن روحاهما تتحملان عبْء الحياة مع الأمراء في قفص، الأمراء مثل الأسود حبيسة القفص إنْ جاعت تأكل بعضها، أصحاب نفوذ، يصعب التعامل معهم.

كانت على يقين أنَّ تلك الوظيفة هي التي أدّت إلى هروب ولدها من دمشق إلى اليونان، ولم تعد تراه بسبب تلك الدسائس البغيضة.

ومع ذلك بقيت دمشق تختلف، الحياة المدنية كونها مدينة مدنية متحضرة، ولم يكن هناك فرقٌ بين الناس سوى آفة الخلافات الدينية.

ولم يفرض الخليفة أمير المؤمنين على أحد الجهر بالدين، فأغلب المستشارين من السريان، وكانوا يؤدون مهامهم في خدمة البيت الأموي بأحسن وجه. باتت بهم دولة لها إدارة منظمة، وبقيت وظائفهم الرفيعة متوارثة من أب لابنه.. ولم يفرض مسلم الدين على زوجته، بقيت كل زوجة على دينها، وعلى عكس ما كانت تسمعه عندما كان على رأس إمارة "مكة المكرمة". فلكل زمان دولة.

بقيت توصي ولديها في القول *"النصراني أخوكم في الدين والأم"*. ومعلم الصبيان يعتنق دينكم.. عرفته خير جار بعد أنْ جاورهم قرابة تسع سنين في محلة واحدة، نزلة النساخين بباب توما، تعاملت معه وسبق له أنْ نسخ لها بكل أمانة عدة مخطوطات تحدثت عن "ديوجينيس"، وعن الحكماء السبعة "طاليس"، "بيتاكوس"، "صولون"، "خليون"، "الأفورس الأسبرطي"، "بياس"، و"كيلوبولص". أرادت أنْ تحفظها في مكتبة الكنيسة التي أسمتها باسم أخيهم البكر. هو الآخر له معرفة واسعة بكتب "سقراط"، و"أفلاطون"، و"أرسطو"..

علم صبيان القصر القرآن الكريم، واستعمال السيف، والمعرفة بالأرقام، خير تعليم ولم يبخل على أحد معرفته جواب سؤال، فقد جعل الأولاد يبارون في تهيئة سؤال، أيّ سؤال، لكل سؤال عاقل

جائزة، يجزي العطاء لصاحب أي "سؤال حي"، إذْ بقي يسمي الأسماء بأسماء نبيلة لا تحرج أحداً، ولا تعارض دينا أو معتقداً، كان يقول *"اسألوا فإنّ محبة الله تبتدأ بالسؤال"*[13]..

كأنها تتوصى بولدها الذي خلف في الأم جرحا خفيا، برحيله، حتى بقي ندبة سخية الألم. بقيت تشكوها كلما قابلت من في عمره، أو أصدقاءَه الذين جايلوه، حيث تشخص الحسرة عليه ألماً، حتى عندما كبر ولداها وتدرجا في المناصب الرفيعة خلفا لأبيهما، استطاع أنْ يبني لها الكنيسة في وسط الحارة التي ولدت بها، وكانت أعظم هدية تتلقاها من ابنها البار[14].

4

تقدمت مجموعة من مؤدبي الأولاد إلى الخليفة لمقابلته وطلب الصفح عن معلمهم الجليل، وكاشفين له أنّه ترك الشام للاختباء لدى شقيقه، المستقر في الكوفة منذ عشرين عاما، ذلك الأمر لم يكن سراً، ولكن لا يعلم به إلا البعض من النساخين الذين عملوا معهم، وليس في الأمر تعارض مع أحد.

13- أمه امرأة تجاوزت السبعين، تهتم كثيرا بالحكمة، شاركت كثيرا بالتدريس في حلقات العلم التي كانت تعقدها في الكنيسة التي ابتناها ابنها.

14- بعدها أنْ أجبرت على زواجها الثاني منه وأنجبت له الأميرين. غادرها ابنها الأول في سن الثامنة عشرة مع قافلة تجارة إلى قبرص، وانقطعت أخباره.

ثم أخذوا معهم أغلب رسائلهما المتبادلة، من دمشق إلى الكوفة، والعكس. ظنًّا منهم أنها سوف تشفع عند الخليفة العادل وتطلق براءة "المعلم الجليل"، وتفك قيده. كانت رسائلَ عادية بين شقيقين، فيهما الأشواق والأخبار بينهما. كما تضمنت دوستا شطرنجية مكتوبة بالفارسية، وبأكثر من خط. حتى أمر حاجبه أن يأخذوها إليه حتى ينظر فيها فيما بعد، ويقول فيه كلمته الفصل، ومضى يسأل في أمر آخر غيره.

5

بات يمني نفسه العيش في سهل "نيسابور" على واحدة من تلك الرساتيق الأربع الخصبة[15]، (الشامات، ريوند، مازُل، وبشتفروش).. حنيناً يتذكر، يعود إلى هناك.

تجوال وزحمة أفكار يبددها، يوحد الفكرة بالفكرة التي تنبض مع قلبه. مضى يغني مع نفسه حيث الحارسان قد أخذهما النعاس بعد أنْ استحكما الباب عليهما من الداخل. صوته الناغمُ يغني من القلب، كأنه يريد أنْ يرسم بصوته ذلك الحنين إلى تلك الربوع. يقول: حقاً العقل هو المتحكم، ولكننا استخدمنا مفردة القلب، لأنها مفردة مركز الجسم. إنّها نغمة ساهرة، وساهرة في مخيلته.

---

15 – أقاليم زراعية.

"الله هو العقل والقلب، وهو الدليل الأكيد".

لم يأته النوم، وهو مقيدٌ في ملابس رثة لم يبدلها، يرتدي سندساً ذلك بشرى لباسه، ويتلحف إستبرقه الذي سيكون له هناك، بات القلب له ينبض بأغنية الرب الأحد العظيم، الرب المطلق الذي خلق عبده بإشارة وجوده، لن يكلمه أيها المعبود، بل يتمثل له؛ أنت تقف، أنا اقف، أعلم قبل أنْ تريد، أو تتحرك، فأنا من قد جعل لك الصفة والحركة. آية فيك إلى البشرية، القلب أغنية لا تروم لذاتها إلا إصغاء..

- *"إنّه أجمع للعقل"*[16]

ما أكبرها من جملة، وكأنها تحوي أسراراً لأفكار منيرة متصلة ببعضها..

6

بقي الدم نازفاً، وهادراً.. يفيض بين المتعارضين على الحكم، بغير حق.

لا حق بهدره، أبداً، والسيف المارق، البتار مجوناً، أعظم من أي مجون خلقي.

16 – القول الشهير لوهب بن منبه.

أحبّ أن يعطي درسه البليغ بإنسانية الإنسان، فقد عرف أنَّ الإنسان في كتبه، أعظم من أنْ يستخدم سيفاً، أنْ يمرغ القلم في الحبر خير من أنْ يمرغ السيف في الدم، القلم يبقى قتله إنْ أحسن استخدامه، والسيف عارٍ من تلك المزية. السيف يمضي في الرقاب ويقطعها، ولكنه لن يقطع أفكارها، تبقى علامات جارية كالصدقات.

- *"أيّ دم ترمي.. أي حبر ترمي.. حبر على ورق أم دم على قميص؟*[17]"..

أقول لك إني منذ أنْ عرفت المخطوطات عرفتها عطاءً قبل أنْ تكون مادة يكتب عليها. مادة تحملها إلى مسافات تقاس على الأرض.

المخطوطات مادة تقاس في الزمن كلما بقيت عمقت، معناها أنّها تخلد وترث فكرة بعد فكرة. الإنسان عرف التدوين وصار به جامعًا للمعلومات.

لكن أحد تلاميذه النجباء بات سيد المعارضين للخليفة، وأعلن عصيانه ثم ولى الأدبار إلى مكان مجهول، ولم ينقطع عنه بقي يكاتبه من بعد، حتى حامت حوله الشكوك، والتبست. واتهم بمساندة الخوارج. فلم يبق تلميذه سؤالاً يلاحقه، حتى كتب به إلى معلمه، يسأله، وما على المعلم إلا الإجابة التي يعرف. أسئلة أولت الأفكار وتسلسلت

17- سؤال "الجهم بن صفوان" وهو من أشهر تلاميذه.

بالمنطق.. كان يسأله أسئلة لم يخف منها أيّ معلم، أثارت حفيظة من حوله، حتى وصل أمره إليه أولاً بأول.

جاء الأمر بالتحقيق مع مؤدب أولاد الخليفة، ولم يمتثل بأمر قطع صلته بتلميذه، بل بقي متفاخرا تفاخر الأسئلة التي تستحق الأجوبة. *"ولكنك يا أبانا جئت تحمل في جعبتك نسخا لم يؤخذ بها، وقرأت لنا تاريخا يستحق الحق ولم يؤخذ به"* ..

- *إنْ فعلوا فإنهم اختاروا ما اختاره الله لهم. الله هو السابق القائل فيهم قبل أن يقولوا عن أنفسهم"* ..

يومها خاف عليه تلامذته واقتادوه إلى مكان يجهلهُ الخليفة[18].

7

لم يكن الوالي طويلاً كشقيقه، ولا عظيم الصوت، ولا غاوي نساء، فأية امرأة تمر عليه في ليلة لن تمر عليه في ليلة ثانية.

---

18 – قصة الدم الذي مازال جاريا على باب "كنيسة أم الأحزان" في الطرف الغربي من مدينة دمشق.. مازال "بيان بن سمعان" بدمه النازف يعلم العلامات، ويبسط الدلالات أجل القول: له نفس الرأي، حيث كانا صديقَين حميمَين مثلما هما الآن، فلا فرق بين حي وميت في قول القول فكل قول لا يموت وقد قال من قال حتى لا يموت القول لنا ومن بعد نمضي نحن ويبقى القول البشري في صفات الخالق. الرجل كرهته الكنيسة في تمثله كما كرهه الجامع.

صوته متميزٌ بنعومة خفر التوسل على عكس طبعه، حيث الأسد يسكن تحت طيات جلده، ولكنه ليس سريع الغضب مثلما سريع الضرب بأكثر من مخلب، لم يتخل يوما عن حمل سلاحِه، وغالبا ما يقول:

- *لا فرق بين قبضة النصل وقبضة الحكم.*

نعومته أشبه بندبة يعاني منها في قرارة نفسه، لم يكشفها حتى لشقيقه الذي يشاركه التفكير والتدبير.

جعل شقيقه المسؤول الأول عن دائرة حماية موكبه، والأول في حلقة الحاجبين، وأميرا لديوان خزينته، يرافقه كظله وكأنه له تلك المرآة الصافية. يهمّ بشؤونه أكثر مما يهم بشؤونه الخاصة، متين العضل، خشن الصوت، دقيق الملاحظة، يودّ من عماله أنْ يطلعوه بكل تفصيل، مشدداً على أنْ لا يهمل تفصيلاً مهما كان قد يتعلق بأمن الأمير، تراكمت خبرته من أيام ولايته على "مكة"، يعتمد عليه في أدق الأمور، خاتم أسراره الكبرى، إذ صفّوا سويا جميع الخصوم. كان يوصيه أنْ يجزل العطاء لكل متعاون ويكافئ كل من خضع لقانون الدولة، كان يرسله عدة مرات إلى خراسان، لإسكات بعض الأصوات، حتى تستقر، يعيده، فيبقيه معه..

8

كلمته فاصلة بين متقاربين، الأمر بالغ الخطورة، كثرة الوفود إلى الشام من أجل نيل العفو له، تخفي في قرارتها شيئا مبيتاً، أراد أنْ ينظر إلى الموضوع من جانب معاكس غير الجانب الذي أرادته أمّه، فقد أحسّ بأنّهم درسوا الموضوع جيداً، وتحركوا إليها، للإيقاع به، ظنًّا منهم أنْ لن يكسر كلمتها أبداً، ولكن الأمر بات واضحا أمام عينه، محسوماً.

بقي يعرف أنَّ الدرس الأكيد، هو الولاء المطلق للخليفة، وذلك ما يرفعه، ويحميه من جميع الشامتين. خبر درسه جيدا، يوم عزله عن إمارة "مكة" أيام كان واليا عليها، أرسل إلى أمهر بناء في دمشق وطلب منه أن يعرض عليه خرائطه من أجل بناء كنيسة وسط الشام، من ماله الخاص، وبعد أنْ أذن له أيامها الخليفة أمير المؤمنين فأهداها لأمه..

أودع السجن بسبب وشاية عن تلكُّؤ لم يحسبه. بات يعلم أنَّ نزوله عن *"الولاية نهاية له"*..

إمَّا الموت إخلاصًا متفانيًا من أجل الخليفة، وإمّا أن يكون بلا إمارة، *"منزوع القيمة"*.. إخلاصه بكل ما عنده من وفاء[19]. أسعفه

19- بدأ نجمه يصعد يوم اسر التابعي "سعيد بن جبير" بمكة المكرمة، وسلمه إلى "الحجاج بن يوسف الثقفي" بالعراق، وهناك قتل، وأخرى عندما كان بعث أخاه "أمية

ذلك وأجمع عليه الشامتين والشتامين، فلم يرضه أنْ يعود كما نزل من الإمارة الأولى فيبقى ويعود إليها مهملاً في دار كبيرة "دار الشريف اليزيدي" في مربعة القزّ بدمشق، يسمع مساخر الوافدين إلى الحمام الذي مقابل قنطرة سنان بناحية باب توما [20]..

- الخليفة الأموي العاشر أعاد له الاعتبار[21]، وأعداؤه ذاتهم ما زالوا يتربصون به من كل جانب، فسور نفسه بدائرة من مقربيه، الدائرة الأقرب جدا، فلم يكن أمامه إلا أنْ يضع مصيره بين أيديهم، كأنما وضعوا هم مصيرهم بين يديه، مركز الدائرة، حمايته تعني حماية أنفسهم..

أكثر من مرة حاول الأعداء اغتياله، ونجا بفضلهم كأنهم نجوا بفضله. مصيرهم هو مصيره. بات كل منهم يعلم درساً قاسياً أنه محور دائرة تقيم عليها سيادتهم، وعليهم أنْ يحموها حماية مطلقة، وابتكروا

بن عبد الله البجلي" في جند كثيف لقتال "أبي فديك الحروري" (هو عبد الله بن ثور بن قيس التغلبي) ومن معه من الخوارج بعدما تغلبوا على البحرين وما والاها (البحرين: الشريط الساحلي الشرقي لجزيرة العرب حتى منطقة كاظمة).. لما أحضروه له، قبضه بلا محاكمة، ونقل شهود عيان إلى الخليفة أنه انتزع كبده أمام الناس، وشواه ثم أكل منه.

20- خاصة أنْ حدثت عدة حوادث وأحداث، منها خروج "المغيرة بن سعيد البجلي الكوفي" في سنة 119هـ وقيامه بممارسة أعمال السحر والشعوذة، فتغلب عليه وقام بصلبه عبرة لغيره، ويقال أحرقه.. حيث عرفه الناس قابضاً، لا يتراجع عن خاطئ تثبت خطيئته، بالدليل.

21- "هشام بن عبد الملك"، وتوجه أميرا على العراق بوابة المشرق في 105هـ.

طرقا عسيرة لأجل أنْ لا يمرّ أحدٌ عليه إلا من بعد سلسلة تفتيش متوالية، لا يدخل عليه أحد إلا من بعد إجراءات، متصلة ببعضها. الوالي ممثل خليفة أمير المؤمنين، والي العراق، بل الشرق كله.

بقي يقول *لا يحتجب الوالي إلا لثلاث خصال: "إما عيي فهو يكره أن يطلع الناس على عيه، وإما صاحب سوء فهو يتستر، وإما بخيل يكره أن يسأل"* .

تربع الوالي كالملك على عرشه.. بفضل فطنته، ودهائه، حيث كان كريماً سخياً مع من يقف معه ويسنده، والعكس مع من يقف ضده، سراً، وعلناً.. دهاؤه كان بليغا جداً، وكان يحب أنْ يظهر بصورة الحاكم العادل بصورة جلية، وقد أسند وظائفَ جديدة لخدمته، وبغرض أنْ يُعليَّ شأنه في نفوس رعيته، حيث عمل على تعزيز الإمامة فصارت من أهم المهام التي يؤكد عليها لترسيخ نفسه، ومنح كل والي من ولاته الامتياز ذاته، ما دام كل والٍ يقدس مكانته كخليفة لا تعلى على سلطته أي سلطة..

يصرّ على أنْ يؤمهم في الصلاة، لفرض سلطته الروحية إضافة إلى سلطته السياسية، ما دام إمامهم فهو بقدسية يفرض احترامه عليهم. حيث الإمامة تعني التحام العقيدة بالقيادة، فمن أسلم أنّه القائد بكل معنى القيادة، ويبثّ ولاءه للإمام ولاءَه المطلق وبذلك يستحصل منه على ما لا يتوقعه من الهدايا والعطايا والمناصب. وكل معارض له يستخدم السيف ضده، وغالبا ما يكون الإمام محاطاً ببعض الأشخاص

الذين يظهرون هيبته للناس، يظهرون أنّهم يقدسونه تقديساً بكل ما يفعل، يتظاهرون علناً أمام الرعية بأنّهم أكثر من الجميع إصغاءً إليه، وبتركيز منقطع الأنفاس، وكأنهم ينتظرون في كل حرف أنْ تسقط قطعة حلوى ليلتهموها بتلذذ منقطع النظير، تراهم يعملون المستحيل أمام الناس ليبدوا أمام الجميع متباهين بهذا الفعل الأهم في حياتهم.. يتقنون كيفية تحكمهم في تعابير وجوههم من خلال إيماءاتهم وحركاتهم أنَّ جميع حواسهم تتبع الإمام، حريصون على ذلك بشدة أنْ تصل إلى الناس. يهتمون جيدا بأية إشارة من يده أو وجهه فلا تفلت منهم أيّ نظرة من نظراته. علها تكون منه إشارة يريدها وتكون أمراً واجب التنفيذ.

وأولئك يحرصون بعد نزوله من المنبر على تأمين طريقه الآمن، يحيطون به كالجدار لا يسمحون لأي أحد التقرب إليه أو سد منفذ طريقه.. خاصة تلك الرعية التي تريد الاقتراب منه، بغرض تقديم شكواها أو السلام عليه، أو التبرك بمرآه.. فقد تكون الإشارة منه، تبعد أو تقرب من يريد، يظهرون للناس أنَّ تقبيل يديه بطريقة تدل على أنَّها يد مقدسة تمنحهم البركة، أو النزول إلى قدميه لتقبيل طرف ثوبه.

تعد تلك الدائرة الأخطر حضوراً من جميع المحيطين به حيث هؤلاء دائما يتنازعون فيما بينهم، وغالبا ما يكونون في مشاحنات دفينة، بعضهم ضد بعض، حيث يغلب عليهم التنافس الشديد، وعادة ما

يقدمون على تقديم وشايتهم ضد بعضهم البعض أكثر من غيرهم، تلك الدائرة القريبة هي التي تقوم عليها قوة الإمام، فهو إنْ عرف كيف يستحكم عليها يستطيع أنْ يستحكم على الدوائر الأكبر المحيطة بتلك الدائرة.. تراهم يعتنون جيداً بتثبيت الشبح الخفي للإمام في عقول الناس، بأنّه العارف بكل مخفي عنه، فهو العارف بكل نية سوء أو نية خير..

- "كلّ ذي حاجة يقربك أن ظنّك تستطيعها، ودونها تباعده النيّات"

9

بانَ الاضطراب جلياً على الأمير، فما مرّ بظرف صعب مثله. حتى قرّر أنْ يلجأ إلى الحلم والحيلة، ودعا مع نفسه ألف دعاء أنْ تمر عليه ليلة العيد بسلام.

بعد أنْ كبر الجامع بالصلاة معلنًا الاحتفال بيوم غد أول أيام عيد الأضحى. حيث اتخذ إجراءات دقيقة. بأن طلب من شقيقه الحضور، ويشيع على من معه بأنه سوف يطلق سراح الأسير أثناء العيد.

جعلهم يبلغوه في قفصه، وأنهم في حالة انتظار أمرٍ بحق المعلم الجليل يجيء إليهم من الشام، ويطلق سراحه..

كذلك طلب زيادة مظاهر الاحتفال بالعيد، وجعل ظلام الكوفة كلّه أضواء، ابتهاجًا بالعيد.

وجه إشارة إلى أخيه من أبيه الذي أنشأ له جهاز الشرطة، وسماه "السميط"[22]. أن ينشر إشاعة إطلاق سراح السجناء بعفو أميري، وأرسل مجددا في طلب القضاة الثلاثة لتدوين ورقة بحكم أمير المؤمنين بشان المعلم الأسير، ثم أرسل في نقله إلى محجز آخر، في مكان آخر، كما طلب أنْ يضعوا له أقلامًا وأحباراً وكمية من الورق، ليكتب بها ما يشاء، وأنْ يحسنوا إطعامه. حتى شاع الخبر المذاع على الملأ، بينما ذاته قد أخفى خبرا آخر تحته، لا يمكن نشره.

- كأنما لم تعش حربك في المليون عام الماضية إلا على أعتاب هذا العام، مثلما لم تعش حربًا نجوت منها.

10

رومية عاشرها والد الوالي، عندما كان أبوه عاملاً في حماية الخليفة أمير المؤمنين، يقال إنّه اختطفها من زوجها النصراني أكثر من سنتين،

22- قيل إن خالد البجلي كان يستعين في بني قومه من بجيلة في إدارة شؤون الولاية، ومنهم شقيقه "أسد" الذي استعمله والياً على خراسان مرتين، وجعله على الشرطة بعهده السمط بن مسلم البجلي، وأبان بن الوليد البجلي عينه على إدارة الوحدات الزراعية، وإسماعيل بن أوسط البجلي عينه على خزينة الجباية، وعبد الله بن عمرو البجلي، رئيس العسس السري، بينما وضبيس بن عبد الله البجلي عينه رئيسا لفرق الوفود.

ثم أنجبت منه ولدين، وهي على ذمة ذلك الرجل الذي بقي معلقا بحبل ودها. حتى استدل إلى خاطفها وشكاه إلى الخليفة ولم ينكر فأمر بتطليقها من النصراني وإعطائه فدية كبرى وأمر عامله أنْ يتزوج المرأة كامرأة حرة.

كانت أمه تحكي حكاية امرأة تتمثل في سيرتها، وكان يحب الإصغاء إليها. كأنه يقول لمن لم يسمعه بصوت شجاع رأيه في والدته النصرانية التي رفضت أنْ تسلم. "إنَّ الدين دين الأب قبل الأم"، على عكس الديانات الأخرى كاليهودية التي تؤكد على أنَّ الدين من الأم، أولاً..

كتب: (تزوجت من رئيس قومه، وكان أكبر منها، ولم يكن معها إلا أباً رؤوماً، وصديقا ودوداً في أول الأمر، حتى باعدت بينهما المصالح، عندما أرادت الإنجاب منه، ولم تفلح، فقررت الفراق عنه، ولما كانت الأعراف تقضي أنْ لا يفارق الزوج زوجه إلا لأمر لا يقبل التغير، فقررت أنْ تأتي بذلك الأمر، ولو كلفها ذلك حياتها، ونجحت في سعيها، حتى فارقته بشرط الحياة، أنْ تعود إليه من بعد زيجة أخرى، ولن يحل عليها، إلا بذلك الشرط، وقد أخذت منه مؤخرها الذي تستحقه بنات الكرام من الناس، تقبلت ذلك الشرط المرّ، حتى دخلت عشًّا زوجيًّا آخر، فأنجبت من "الهباش" خمس بطون، ولدين وثلاث بنات).. (بعد أن ترملت في زوجها الثاني، وأبنائها الخمسة، وجدت أمامها الدرب مغلقاً، بل المستحيل عينه أنْ تعود إلى زوجها الأول حسب قناعتها، ومن المستحيل أن تبقى مستسلمة لقدرها إلى

وصاية زوجها الأول، خاصة بعد أنْ تعودت على إدارة مواردها بنفسها، وترسل قوافل تجارة إلى ما تحب أن تكسب..

11

الكوفة على الأغلب؛ في كل بيت مدرسة، أغلب من سكنها من أحفاد الفائزين بالحياة بعد موقعة "صفين" من الذين اصطفوا مع الخليفة الرابع الراشد. وهو من اتخذها عاصمة فعرفت من (كوف: تجمع) وسميت كوفاني (المواضع المستديرة من الرمل)، وكل أرض فيها الحصباء مع الطين والرمل تسمى كوفة، وسميت "كوفان" بمعنى (البلاء والشر)، أو (ما بين الدغل والقصب والخشب) وسميت "كوفة الجند" لأنها أسّست لتكون قاعدة عسكرية تتجمع فيها الجند. ومهما يكن فإنَّ اسمها اسم عربي، وقيل إنَّ اسمها سرياني.. في أغلب بيوتها تجري حلقات درس وعلم.

12

قال ناصحا لابنه: وتلك حكمة؛ امرأة قتلت الخليفة منقذ البيت الأموي[23]، بسبب شتم ابنها "خالد بن يزيد بن معاوية"" شتيمة قبيحة وأمام الملأ وبألم شديد نقل لها ابنها ذلك، وقد كانت عزيزة النفس،

23 – "مروان بن الحكم".

ومتينة السرّ، قوية العزيمة والتخطيط، فأرادت أنْ تعيد لنفسها مكانتها بين الناس، من بعد شك أنه تزوجها بعد أنْ قتلت له والد ولدها بالسم، وعلى الرغم من ذلك مات ولم يرض أنْ يسمي خليفة من بعده، لأنه كان يرى في نفسه بونًا شاسعًا بينه وبين الخلافة الأموية، وفي تلك أيضًا تدخلت "أم خالد" وأكدت أنّه أوصى أنْ يكون الحكم لجمهرة من حكماء البيت الأموي، وتمّ اختياره لأسباب أهمها أنَّه أكبر البيت الأموي سنًّا، وتسلسله كابن عم، وخدمته الطويلة في الدولة الأموية والأهم تعهده أنْ تعود الخلافة لـ"خالد" من بعده. إلا أنَّ ذلك الرجل تعمد أنْ ينال من ولي العهد بمختلف الإهانات، والسباب، فلما جاءه بالشتيمة الكبرى ربضت له، وقد قالت لابنها "لا بني إنّه عمك ولك عنده منزلة ابنه".. لما جاء الليل وكان زوجها، ونام عندها، سقته اللبن المسموم، وكان قويًّا وهو ابن خمسة وستين عاماً، علمت أنّه لم يتأثر بالسم، وضعت المخدة الكبيرة على وجهه ومن ثم جلست فوقه وانقطع نفسه فمات..

قصتها سلاح ذو حدين، إياك وإهمال الدرس العظيم. حيث صلابة النساء حاجة ضرورية، وإنْ وجدت امرأة قوية المراس حكيمة دقيقة الملاحظة، تقف إلى جانبك سرًّا وعلناً، إياك أنْ تفرط بلازمة تدعمك من أجل أنْ تبقى في مركز متقدم في الحياة. إنَّها المعرفة الأكيدة التي تحميك من المكيدة، لأنها تعرف نفسها جيدا بكل ما تريد.

مصنف/ ب/ 4: نوع الورق: بردي/ العربية / المؤلف: محذوف

1

كتب إليّ فيما سبق: ثلاثة يقرفونني الى أبعد حد، بخيل علم لا ينتفع به سواه، ودعي علم يعلمه، ويظهر فيما بعد أنّه لا يعلم منه، وثالث يدعي الفضل من العلم بما لا يعلم به، جميعهم لا يعادلون رابعاً أكثر يدعي الدين ولا يلتزم بأخلاقه..

ولا يسوؤني إلا موت مخطوط يتحول إلى رمادٍ، أكثر من موت عزيز خاصة ما تجشمنا العناء به، ووضع فيه "والدنا" كل روحه، حتى إذا تسلموه باليمين منا سلموه بالشمال إلى يمين الخليفة ليحرقهُ، فأي زمن يطول بي وأنا أجتهد بحثاً عنه حتى ذكر لي أنّه انتهى إلى مكتبة الحرق.

2

على ظهر حمار، أجوب المدن والقرى بحكاياتي أحكي للأولاد والمسنين متناغما مع خطوه، أراه سئم من ذكر السيرة الطيبة التي حزّها سيف ظالم. بقي يرافقني كالمستمتع بمواويل سحر بليغة، ولم تسحر

أحدًا سواي، أجهش في نشيج متواصل، لا أستريح منه، ولا أريح. أقول لأحجار الطريق كفي عن تذكيري أنك شواهد قبور، لن يرجع إليك أحد، وإنْ رجع ليس بإمكانه إلا البكاء، ويعود أدراجه حيث يواصل خوفه من كل سيف مسلط.

حماري قد اتعظ من كثرة أقوالي، وأنتم يا سادة رفقتي في الطرقات، قد تناغمت مواويلكم مع جلّ أنغامي، ووجب تدوينها. أنغامٌ شهدت الدم بطلانها، ولم أروِها حكاية عابرة، بالرغم من أنّها واحدة من بين ما قرأت في كتبكم، ولم تكن الأبشع.

أعجب منه قد بقي مستمتعًا بمواويل تسحره، وهي عجبا لا تسحركم!.

- "العجب العجاب أنّهم يتبارون حول ما لا يؤمنون به".

3

لفتني رسمك الجديد في كتابة الحروف، رأيت به ترسم روحك، أحييت بريشتك نهجاً سوف يسير عليه من يتبعك. قواعدك لهذا الخط جديدة على العربية. أنْ تعطيها من شخصك الذي يفوح برائحة ذلك الورد النيسابوري الذي كان ينشر أنفاسه ليلاً على أسيجة تلك البيوت البعيدة، والتي كانت تملأ أسطحها بنسوة لهن العيون المتسعة بالفرح.. أقرأ نون النسوة، وكأنها وعاء أنثوي يتحرك بتلك البسمات العالية في

تلك الأسطح البريئة.. لقد أحيَيت لهم خطًّا ثانيًا سميته "الكوفي"، وكان بحق أنْ تسميه "النيسابوري" لما احتواه من متانتها وبلاغتها الأنيقة.. ثبتَّ جمالاً سوف يبقى حيًّا، أو ليتك سميته باسمك، مساراته توحي لي بوجهك، فكم أنا مشتاق لك.. لي أمنية أنْ أعود إلى "نيسابور"..

بات الأمر عندنا في الشام، الاستعداد الرسمي للتفريق بين الحروف المتشابهة شكلاً، والمختلفة صوتاً، ثمة مباحثات جادة رفعت للخليفة بإدخال تلك النقاط إلى الكتابة العربية. تتبدد معاناة كثيرة، وسوف يقرأ الكلام بطريقة أقرب إلى الحقيقة بدلاً من تلك المتاعب التي يقع فيها النساخون.

لقد مات منا من لم يحزر الكلمة، وقد أخطأ منا الكثير بلفظها برغم رسمها الواحد. أتذكر قول "معلمي" إنَّ اللغة العربية، لغة قاصرة ما لم تنفتح على اللغات الأخرى، حيث الألفاظ ألفاظٌ لا يمكن نكرانها، وبعضها ما لا يجوز أنْ نعتبرها كلاما من عند الله. حيث الله لا يقول كلاما بشريا قاصرا.. لقد اقتربت الصور للمعاني أكثر من التيه..

لقد جاءت النتائج لصالح الحروف من أجل تميزها عن بعض، فثمة صورة حرف واحدة بأربعة مخارج صوتية، سوف يعمل تغيرا جذريا ذلك التعميم في البيت الأموي، وننتظر أنْ يبتّ بأمره الهام. الخليفة أمير المؤمنين، يود أنْ يحسم الموضوع ويعطي لكل كلمة شكلها الحق بمعناها الحق. لأنه يدخل أول الأمر في ما أنزله الله من كتاب

مقدس. وليس بإمكان القراءة كل بشر وفق مخيلته. أنا أرى ثمة نفساً جديداً يدخل إلى شكل الكتابة فينقلها من الركود إلى الحيوية.. حتما سوف أشرح لك ذلك في رسالة تالية.

أمّا عن نفسي فقد أخبرتك عما كشفته لك من رغبتي بالعودة إلى مؤدبنا الكبير[24]، لم يقل شيئًا بخصوص التفريق بين الحروف.

أراه بين الفينة والأخرى يفتح لي ابتسامة فاتحٍ ودائما يأخذني إلى نزلات دمشق المزدحمة ليس تجولاً بين البيوت، ولكنه أطلعني على مكتبة فيها العديد من المخطوطات اليونانية. سرني ذلك، بل أبهجني في حقيقة الأمر.

يكون سروري كبيرًا كلّما أختلي مع مخطوطات عديدة لكتب قيمة، قال إنك خلقت لهذا و"نيسابور" ليس لك فيها مكان.

- "لعل الحرق مصير المخطوط الذي تجشمنا به من نيسابور إلى دمشق"..

4

للوالي أخٌ غير شقيق من أمّه، يكبره بخمس سنوات، أمّا أخوه الشقيق فهو يصغره بسنتين، الاثنان كانا يخفيان بتكبر قصة أمهما

24- "وهب بن منبه".

المسكينة، والتي جنى عليها جمالها لأنها جميلة جميلات زمانها، والذي جلب عليها طمع البدوي العنيد، من بعد أنْ جنّ بها وخطفها من بيتها منتزعًا إياها بقوة السيف، برغم كونها أمًّا في بيت وعلى ذمة زوج صالح. تلك المرأة ابنة لأشراف النصارى الموالين للخليفة، بنسبها، وسيرتها الحسنة..

ففي ليلة ليلاء غار على بيتها بصحبة ثلة من معاونيه، ثم انتزعها وقام بحجزها طويلاً، فحبلت منه. ولما بلغ أمرها إلى الخليفة أمير المؤمنين، أمر لها بالإنصاف على أنْ يُطلقها زوجها النصراني، وأنْ يتم تزويجها لذلك البدوي الذي كان أحد قادة جند الخليفة، الأوفياء، وعلى سنة الله ورسوله، مشترطًا عليه أنْ يدفع لها مهرا كبيرا، وفدية مثلها إلى طليقها.

لم يقبل الزوج المنكوب، بذلك العدل بديلاً عن القصاص من الفاعل الفاحش، حتى هاجر إلى مكان غير معلوم تاركًا مدينته "دمشق" للغرباء.

أما ابنها فلم تظهر عليه معاناته إلا عندما كبر وعَلِمَ بما جرى لأُمهِ. كأنما جمالها قد ألحق بها وصمة لم تستطع كل بطولاته نسيانها.

لولا أنّها مؤمنة بعدالة السماء لقتلت نفسها، ولكنها بقيت تكافح من أجل أولادها الثلاثة، وكأنما تعيش لأجل نسيانِ جرحها العميق بتربية أولادها الثلاثة، مثلما قاست كذلك من جور فراقها. فصل

ولديها الشقيقين عنها وأخذهما مع بقية أبنائه من امرأة أخرى إلى "اليمن".

بعد ذلك ترك لها ابنها البكر، لأنه لم يكن من صلبه، إذْ كلف بتولي مهمة هناك، فأخذهما معه، فقد كان حريصا طوال حياته معهم على تربيتهم وتعليمهم على مواجهة صعوبة الصحراء، ومهارة استخدام السيف، ذلك الأهم من علم الكلام وتأويله، حسب قناعته.

بعد عدة سنوات، مات الأب مغدورا في اليمن وعاد إلى أحضانها ولداها المبعدان، وجعلتهما مع أخيهما، فأحسنت احتواءهما. وأكملت لهما التعليم. واستقرت بهم في بيت دمشقي كان لأبيها.

نشأ الصبيان إلى جانب أخيهما وهما متعلقان ببعضهما، ويحبان أمهما التي كانا يفتخران بها، لأنها الفاضلة التي رفضت الزواج بالعديد من الرجال الكرام. بقيا حَبيسَي تلك القصة الغريبة، لم يعلم بها أحدٌ خارج القصر.

5

عُيَّن ابنها البكر بفضل إجادته السريانية القديمة بين جوقة مؤدبي المدرسة الخاصة بتعليم أولاد الخليفة، وبطلب من الخليفة. دخلها معلماً، كانت تعمل وفق نظام عسكري خالص، فلزم عليه أنْ يكون جنديا عاملا بنظامها المتزمت. جعله ذلك أنْ يكون متذمرا من تلك

الشدة، والمشاغبات الكبيرة التي يحدثها الأولاد حيث وجد فيها أمراء صغار معظمهم من أبناء الجواري، وتلك الأمهات قد نقلن صراعهن ليكون شاخصاً بين أولادهن، حيث كان التنافس بين بعضهم البعض، محتدماً. بعض الأمراء كانوا من زواج شرعي، وبعضهم اعترف بهم آباؤهم فيما بعد.

وجد نفسه يعيش ذلك المأزق العنيف بأكثر من قصة تشبه القصة التي حفرت في نفسه. القصص تأتي إليه من ألسنة الأولاد أنفسهم، كل منهم يكشف قصة الأمير الذي لم يكن معه متوافقًا.

دسائس الحريم كانت غالبة، معظمها قصص لم تسره، إطلاقًا. وقد جعل نفسه بينهم لتصل أذنه حقائق من باطن ذلك القصر الذي بات بالنسبة له، وكر دبابير سوف يستشعرونه غريباً، وذلك سوف يكلفه ما لا يستطيعه من كَلَفه. وعندما أراد أنْ يكون محايدًا، بينهم، وجد ذلك الأمر بالغ الصعوبة فقد تدرج حسب تكوين خاص، *"إما أنْ تكون معي أو عليَّ"* .

كأنما يتطلب الإخلاص لطرف على حساب الطرف الآخر، فلم يستطع حتى وجد بينهم من يُعيّرهُ شخصيًّا بما جرى لأمّه في غابر السنين الماضية. فالذي آله لم يكن مخفياً بل معروفاً عن أمّه (التي طلقت من زوجها النصراني لتتزوج مسلما).

كانت الحكايات المتشابهة تلتقي في أفواهِ منْ يتحسَسون بها، وكأنها بقية نار مخفية تحت رماد، كلما مسها الريح توهجت.

وفي ليلة قرر ترك دمشق وأمّه. ووظيفته في القصر.. حيث بقي يعج بالمنازعات العلنية والسرية بين أبناء الإماء وأبناء السبايا، والمملوكات ملك اليمين، والجواري، داخل القصر حسب غايات وتسقيطات احتلال الأماكن، والتقرب من كرسي الخليفة، أو الأطماع بالاستيلاء عليه سرًّا أوعلنا..

تلك الأحداث جرفت العديد من الناس كوقود محرقة، أو أكباش فداء.. ذلك الصدع العظيم كان جاريًا داخل البيت الأموي الواحد منذ تنازل الوريث الوحيد الخليفة الأموي الثالث عن كرسي الخلافة.

6

بقي والي العراق يتوعد أهلها بالصلب، وهدم منازلها إذا خرجوا على طاعة الخليفة، ومما جاء في الخطبة:

- *(عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإني والله ما أوتي بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم. إن الله جعل الخلافة فيه بالموضع الذي جعلها فسلموا وأطيعوا ولا تقولوا كيت وكيت. إنه لا رأي فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه، واعلموا أنه بلغني أن قوما من أهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون في بلادكم فإياكم أن تنزلوا أحدا ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة فإني لا أجد أحدا منهم في منزل أحد منكم إلا*

هدمت منزله فانظروا من تنزلون في منازلكم وعليكم بالجماعة والطاعة).

7

وجد رفضا من أمّه بكل حدة، عندما أحست أنَّ أحد أولادها قد هام عشقاً بابنة جارهم النصرانية، لا تريد له أنْ يكرر قصة والده المأساوية.

أحدثت تلك الحادثة شقّا كبيرا في ذاتها، وباتت لا تسمح بذلك الحال أنْ يستمر، ومنعته من الالتقاء بتلك البنت البريئة، التي هي الأخرى تواصلت معه بعبث صبياني، كانت أمّه تعرف إلى أين تصل تلك المشكلة، فلم تقبل، فقد كانت شديدة الانتباه لذلك الوصال الغرامي، وبقيت تتابعها بدقة العارف، ولا تود أنْ تفلت منها كما أفلتت قصتها وجعلتها تخسر أغلى ما عندها، فالأهل تخلى عنها برغم من أنَّها كانت غير مسؤولة عن ما فعله أبوه، فلم يكن أمامها إلا أنْ هددته أن اقترب من البنت، ولم يعدل عنها بأنَّها سوف تنتحر، كأنما كان ذلك الحل الوحيد المُخلّص لها من تبعات القصة السابقة، وأنَّ انتحارها اليوم سيكون بسببه، وكانت جادة، لأنّها كان تبحث عن موقف حقيقي كأنها تعيد تصحيح مسار تاريخ ما كان ليستمر بهذه النتيجة.

وقوف تلك القصة أمامه جعلته، يكتم حبه، وطلب من أمّه أنْ ينتقلوا من تلك المحلة. بعد أنْ تراجع ابنها عن هواه، وأقسم لها أنّه لن ينظر صوب بيتهم أصلاً، وبقي ذلك العشق محفورًا في ثنايا روحه. بالرغم من صعوبة الأمر، ولكنه تحمله بجلد وصلابة رجولة، وأراد أنْ يثبت لشقيقه؛ (*أنْ لا أحد عليه أغلى من أمه*).

8

كان النص الذي لا يحوي نقاطاً يمنحنا فرصة التفكير فيه على أنّه النص الذي يجب أنْ يقرأ بطريقة تليق بقدسيته. يجعلنا نفرق بين الحروف المتشابهة لنجعلها توحي لنا بمعنى يريده الله منا، فرصة كبرى، وطريقة مثلى تليق بالمعنى الذي كان يريده الربّ، فالرب لا ينقط إلا كلاما كونيا مقدسا، لكوننا نبحث عن المعاني الكبرى التي يقصدها الإله، وضع النقطة على الحرف تدل على أنَّ شخصاً ما قد سبقك بالقراءة، وقد وضع النقاط على الحروف على هواه، وذلك ما لا يبقيهِ مقدساً.

9

تزوج الوالي وهو لم يبلغ الثامنة عشرة، زوجته أمّه من ابنة خالة الخليفة، تلك من اختارته شاباً بين جوقة فرسان القصر المتبارين في

ميدانه، أعجبها رشاقة رميته. كان مبدأ والدها أنَّ الأب عليه أنْ يسعى بتزويج ابنته قبل سعيه بتزويج ابنه. أنْ يضعها في مكان أمين لتكون في سعادتها وتسعده.

والدها هو الآخر أحد الفرسان المكلفين بحماية القصر، وأثنى عليه أمام الخليفة كثيرًا لأنه فارسٌ مهيبٌ عظيم التصميم، دقيق الملاحظة. وقد آثره الرجل مديحاً في مواهبه وشجاعته، فكان الأول في إصابة القوس، وقد تغلب على العديد من الفرسان، سواء بالسيف الخشبي، أو اليد المجردة. عني بمهارة السيف، همّه التمرن ليلاً ونهاراً، بأحسن ما يجب.

10

كلمة "الله" أكبر من أية كلمة "بشرية"، كلمة كونية فيها خبرة سماء ذات أبراج، وليست أرضية محدودة، كلمة شاملة ما إن تسمع أو أنْ تقرأ تجعل البشر يرتجف لإيقاعها، وتكون موقعة في نفسه رهبة عميقة، تجعلها تفهمها دون حاجة لأحد في مساعدته، إنَّها الكلمة المخلوقة التي هي في الأصل لها مكان في الجزء الأكبر من القلب، لقد خلقها الله مدخولة في تلافيف ذلك القلب النابض. لا تحتاج إلى لغات أخرى، كلمة واحدة ماضية إلى داخل تلافيفنا، ونطيعها لأنها بصمة الله فينا.

11

في أول الأمر كانت الخلافة منقسمة على ثلاثة شركاء، كل منهم يسمي نفسه خليفة المسلمين وكان يريدها لنفسه، واحدة في "الشام" والثانية في "العراق" والثالثة التي كانت أكثر خطورة وقوة تزهر في "مكة".

كل منهم يسمي نفسه ويريدها دون الآخرين. إلا أنَّ الخليفة الأموي كان أكثر دهاء وأبعد نظراً من نظيريه في "العراق" و"الحجاز". بالرغم من أنَّه كان صاحب قوة لا يستهان بها إلا أنَّ صراعًا عميقًا كان داخل البيت، وقد تفرع منه صراعٌ سوف يضعفه إنْ لم يرممه، اشتد خصوصًا بعد أنْ تنازل الخليفة الأموي الثالث عن العرش، وأعلن أنّه لا يريد، ورفض أنْ يسمي سميّا من بعده.

لما عزل استلم كرسي الخلافة من بعده ابن عمه، وهو الأقرب إلى سدة الحكم، فقد تقلَّد وظائفَ كبيرة في زمن الخليفة الراشد الثالث، وقد علم جيدًا بما آل إليه من منصب. انتخبوه على شرط أنْ يتعهد أنْ يقوم بتسليمها لابن الخليفة الثالث، لأنه طفلٌ صغيرٌ لا يحتمل أعباء مهام الدولة ويعود الحكم بعده إلى فرع الخليفة الأموي الأول.

استطاع كخليفة أموي رابع أنْ يكوّن دولة متينة قوامها الانضباط، بفضل خبرته العسكرية أنْ يفتح فتوحات جديدة في وادي النيل، وجنوبه، كما استطاع أنْ يقوم الدولة من داخلها بعد أنْ أوشكت أنْ

تفككها النزاعات والفتن العقائدية، واستطاع أنْ يرسم خططًا ذكية بمهارة ومهنية كبيرة، بالرغم من أنَّ مدة حكمه لم تدم سوى تسعة شهور، استطاع بها أنْ يثبت أركان دولة أموية رغم التمرد الذي أوشك أنْ يحدث للسيطرة على "العراق" و"الحجاز"، لذا تأنى قليلا من أجل أنْ يلتهم بعضهما بعضاً، وبقي يراقبهما بدقه، حتى تحقق له ما أراد وسقط من احتكم على العراق على يد من احتكم على الحجاز وبسرعة خاطفة جهز جيشه لحسم الصراع لصالحه، واستطاع أنْ يخضع ولاية العراق لخلافته. ثم أسند إليها والياً عرف بالجزار الأعور، وتمكن ببطشه من كل المشاكل في ولاية قام عليها حدّ السيف البتار.

لكن الخليفة في "دمشق"، لم يهدأ له بال، وحتى أمر بتوجه والي العراق بصحبة جيش قوي، ليفتح له "مكة"، ويأتي له برأس من تحصن بها وادعى أنّه خليفة المسلمين، ولم يوقفه أي مقدس، بل بقي يرميها بالمنجنيق حتى أسقط نصفها، ولكن الخبر في تلك الساعة جاء بوفاة خليفة "دمشق" وتسلم من بعده ابنه كخليفة خامس.

12

وقبل أنْ يكون واليًا على مكة؛ تطلب الأمر رجالاً مخلصين لمواجهة عاصفة قوية بقيت تهب من "مكة" باتت تهز القصر الأموي، فطلب

من الخليفة أنْ يقبل تطوعه لأجل أنْ يأتيه بيقين إخمادها الأكيد. فرأس عشرة فرسان بينهم شقيقه، ثم اتخذوا خطة أعجبت كل من عرف بها فخرجوا وكأنهم ذاهبون إلى "اليمن" بواسطة البحر، خشية من الجواسيس.. كي لا يكشفوا وجهتهم الحقيقية. حتى وصلوا كانوا على استعداد لدخول مكة المسورة سرًّا من المحور البحري الذي يسيطر عليه "بن جبير"، بصحبة "طلق بن حبيب" حيث تسترا بداخل أسوار بيت الله، وهم يحاصرون فيها الحجاج لا يطلقون منهم إلا من بعد مبايعة.. للثورة على البيت الأموي الحاكم. وتمكن الرجل برجاله العشرة من الدخول للحرم الشريف سرًّا متنكرين بزي الحجيج، وجدهما يخطبان في الناس محرضين على صلب خليفة الشام، وإرجاع العاصمة إلى مكة.. تقدم الفريق مخفياً الأسلحة بين طيات الثياب، حتى اخترقوا الحلقة المحيطة بهما وأخذ كل منهما الرجلين العجوزين بيسر (هو وشقيقة) وبقية الفرسان تحيطهما تحت تهديد الذبح، حتى سحباهما إلى خارج الحرم، بعد أنْ فلت حلقة حراسهما إلى مكان غير معلوم.

كان أغلب الناس في ملابس الإحرام، ليست مستعدة لقتال، وليست في حالة حرب، غايتها الحج، واستطاع الفريق بقيادة جريئة أنْ يقبضا على رأس فريق التمرد وأنْ يسلما الرجلين إلى والي العراق السابق والذي قادهما إلى مكان آخر لمحاكمتهما بالموت.

وبقي بصحبة فرقة فرسانه في مكة، يقدمون للناس ما تحتاجه، ينظمون السقاية، ويحمون الطرقات، ويقيمون لهم الحماية..

ولما مات والي العراق السابق بعد ثمانية أشهر من ذلك اليوم، قد أحبهم الناس، فكتبوا إلى الخليفة في الشام أنْ يبقيه عليهم، وجعله مستخلفا وليها الذي نقله عاملا على العراق. بعد أنْ استقر واليا على مكة، وسع في بناية الحرم المكي، وفرشه بأحسن فرش، وجعل عليه ابن عمه مديرًا لشؤونه، وجاء بمعماريين أعادوا البناء.

بات المكان سوقا تجاريا يقوم الناس إليه من كل مكان.. منذ ذلك اليوم كان يعتمد على قرابته، من عشيرته، وأبناء عمومته، وإخوته.. وقد استشرى الفساد بين بعضهم، حتى اختنق بهم أهل مكة.

- *"باتت مع الأيام قسوته تميل عليهم"*.

13

قالوا عن ابن والي العراق قد نشأ مدللاً كأبناء الملوك، وقد وصفه الواصفون بأنّه بنى إمارة قوية متينة داخل إمارة والده، وبوصايته، وبقيت تلك لها من المركزية كأنها غير مرتبطة بأحد سوى والده، ولكنها مستقلة تماما عن الخليفة أمير المؤمنين.

وقد أكد أحد من دائرة حمايته المقربة الحكاية التالية:

إنَّ أحد التجار، طلب يسال مقابلة الأمير، ولا أحد يعلم له مكانًا يستريح به، وأمكنة الراحة سرية لا أحد يعرفها سوى شقيقه والدائرة الضيقة من حمايته. ولما استطاع الوصول إليه بواسطة أحد المعارف في بستان سري على ضفاف نهر دجلة، طلب من حراس البستان السماح له، ولما قبل الوالي المقابلة شرح له بأنَّ ابنه البكر يطلب زيادة في نسبة أرباحه بدلاً من 47٪ إلى 53٪ ومبينا أنَّ تلك الأرباح قد تجعله يخسر خسارة كبرى، فلما أنصفه، بعزل ذلك الطلب، عنه، وأوصى أن يصل الخبر إلى ابنه أنْ لا يعترضه بأرباحه، مبينا أنَّ ذلك سوف يكون عليه حراما، وسوف يبقى الأمر كما كان عليه في السابق.. وعندما همَّ أنْ يغادر، ذلك التاجر، طلب منه خالدٌ أن يعيد إليه الحق، فقال كيف يا مولاي: أنْ تخبرني عن اسم الخائن الذي أوصلك إلى بستاني، ومكان راحتي، حتى أخبره خوفا، وجيء فورًا بالجندي الذي وصف للتاجر المكان، مكتوفا، جاثيًا على ركبتيه، وسحب الوالي سيف الجندي ذاته، وأمر التاجر أنْ لا يغادر المكان إلا بعد أنْ يتركه ذبيحاً.

14

الكلمة حية، كأي كائن حي يسعى، لا يحتاج منا إلا أنْ نبدله بصورته، ليدل على نفسه في كل اللغات. اللغات كلّها متسلسلة من بعضها البعض، تنزل العقل البشري، لتعبر عن تلك الصورة.. أية صورة لا تعادلها إلا حروف صورتها...

15

وعن جندي آخر ذبحه الوالي في مكانه بسيف غيره، عندما سأل أحد الجنود، بأنه لم يره من قبل في بستانه، وكانت له ذاكرة حفظ الوجوه، لا ينسى أحداً يمر به. فأخبره أنَّه قد عين بأمر أحد أبناء عمومته، ولما سأل جيدًا في الأمر مدققا استطاع أنْ يكشف محاولة لخرق حمايته، وناوله السيف وأمره أنْ يقتل نفسه..

16

أراد أنْ يواصل الصور، فينقل تراجمها من مكانها المزيف إلى مكانها الحقيقي، كان يذكر موضع العقل من النقل، فلا ينقل إلا كلمة عاقلة، تحرم الله، وتعطيه جلالاً هو منه، ومن ضوئه في لفظها.

17

كان هو عاشقا فيعرف في مجرياتهم، فلم يكن يكتب بالسيف والدم، بل كان يكتب قصص العاشقين من أجل أنْ يجمعهم.. كان يطوف في كل ليلة سبت على السجون، يتفقد من كان فيها، وكأنّه في كل مرة يبحث عن مظلوم يطلقه. يذكر له أنّهم ذات مرة توسطوا لجندي تكرر سجنه، وكان ذلك الجندي من مخلصيه، فلما شاهده سأله، ألم أطلقك في المرة السابقة، قال بلى يا أمير المؤمنين، قال وما

الذي أعادك، قال السبب ذاته الذي تخرجني به ذاته هو الذي يعود بي، قال وإن أطلقتك هذه المرة أيضاً، قال *بلى يا مولاي قد تراني أعود، قال اصدقني "ما قصتك يا فتى" .. قال عشقي لجارية لن أتخلى عنها ما حييت، وكلما قابلتها وقعت قدمي هنا" .. ثم بعث إلى أصحابها ودفع إليهم ما طلبوا من ثمن، وجعله يتزوجها" ..*

18

الكلمة عندي نظرة غرة، متينة الحقيقة، تبقى في كل اللغات تسير على قدمين، وإنَّها حتما سوف تصل بمعناها حيث تريد أنْ تصل، عاجلاً أم آجلاً.

19

سمي ابنه تملقا على اسم الخليفة الذي كان يحكم يوم ولد.

إذ بقيت العرب تسمي أسماء ابنائها على أسماء الخلفاء والحكام، تيمنا أنْ ينال حظه باسم ما سمي به. وقد جعل له في النساء الفاحشة الكبرى، لأنه ابن أمير لخليفة الله في الارض، عاث فسادا، ولم يشفع إليه، بينما ارتفعت عليه النسوة الكثيرات بشكواهن منه، ولم يسكتن عنه.. كشفوا بأنه أول من أوجد سجنا خاصا بالنساء، وقد عني به عناية لافتة.

أثناء صلاة المغرب 9 ذي الحجة. سنة (119هـ)

1

خطوته السريعة، خفته، ومتانة عضلاته، كلها صفات جعلته متواجدًا في أيّ مكان من الإمارة، كأنّه الحاضر الذي لا يغيب. يمرّ على الأسواق، ويزور جنوده في ثكناتهم، ويقيم حاجاتهم. ليترك ظلّه العملاق الكبير، شامخاً على أيّة بقعة، يحضرها.. كأنما أكبر مما في حقيقته.

رغم صوته الناعس، ورغم ميله إلى النعومة إلا أنَّ عينيه تبرقان كسيفه البتار الذي لا يفارق يساره له مقبض، أغلب الفرسان الذين غلبهم في المبارزة كانوا يخدعون بما يمتلك من المهارات، يده الشمال، تعمل بانفصال عن يده اليمين. كأنه فارسان ينقضان على فارس واحد، فيصرعانه.. يتنقل بخفة يغلب من يبارزه، مهما كانت قوته، ومهارته. يكون في عداد المصروعين، ولا تأخذه رحمة في من شهر بوجهه سلاحه، إذ يقبضه بيسر وسحر، وكأنما "عزرائيل[25]" ضد خصمه.

---

25 – ملك الموت القابض على الارواح حسب القصة الدينية..

مع نفسه يظن أنَّ أعداءه يبالغون في الادعاء بظلمه للناس، لكونه عادلاً وفق شرعٍ لا يفرق بين غني أو فقير، كبير أو صغير، قريب أو بعيد..

يعرف أنَّ كل العيون ترقبه ليعدل بينهم مهما كلف الأمر، يسعى لإزاحة الظلمة الباغية، التي يستفيد منها أعداؤهُ للتأليب عليه.. يكبرون في شأنه أكاذيب، ليبدو للناس وحشاً كاسراً، ويجمعون عليه بالرأي أنّه الباطش بغير حق. ما استقر بكرسي ولايته في "الكوفة" أو في "الكوت" أو في "نينوى" إلا ليذيق الأعداء مرًّا لما يعدون من تقويض للخلافة. فوسع عليه الأعداء إشاعة التخويف منه، ويبقى الغريب الذي يتوجسون منه بكراهية، ومقت..

2

ترغب الكوفة أنْ تبقى عاصمة السرّ المتين الذي لن يبوح به أحدٌ، ومتنت ببواطنها معارضات كثيرة أبرزها قوة الخوارج الذين يعدون سراً للإطاحة بالباطل الذي انتزع الخلافة من شرعها، مدينة مليئة بصحابة عاهدوا أنفسهم على أنْ ينتصروا لحق لهم.

في الكوفة مجمع أهل الأفكار والعقائد، تنام على كنز من الأفكار المتلاحقة والمتدافعة، بعضها تزيح بعضاً، وبعضها تسند بعضاً، أجمع التاريخ بكل محتواه بين مسامات الكوفة، مدينة تناصرت الأضواء فيها كفنار يرشد الدارسين والباحثين عن المعاني الحق في الشريعة الواحدة.

مدينة لا يفوق أهلها معرفة بدقائق السيرة النبوية. تتسع أفكارها من بعضها البعض، وصار أهلها يعرفون النياسم الحقيقية التي تمر بها الفكرة. وإن أينعت من بين أسطرها معانٍ أخرى، وأخرى.

ولا بدّ أنْ تبتدئ في غفلة السيف القاطع البتار.. تتحرك ولا تقبل بالركود، وكأنها تعمل وفق جدول لأسرارها الدفينة الممتدة تحت رمل الصحراء الشاسعة.

3

من النادر ما يتوضأ في الجامع، على الدوام يأتي إلى المسجد جاهزا، وكانه قد استعد لذلك، يحمل في شماله نسخة مذهبة الغلاف من القرآن الكريم، كأنه دائم القراءة فيه، أو فرغ توا من قراءة بعض من آياته..

ناسك متبختر، يحاول الاستمتاع بما يقرأ، يهزّ رأسه، ويهزّ بدنه ويشهق بكلمة *"صدق الله العظيم"*، ويقبل كتاب الله بخشوع، ومن ثم يرد السلام، على من يسمعه سلامه.. ومن ثم يعاود الصلاة لركعة أخرى زيادة، انتظار الأذان الذي يشير للناس بدء صلاة العشاء. كانه يصغي إلى كل صوت جميل من قراء القران، الذين يتفقهون القراءة لفظاً ولحناً، طلب منهم أنْ يتناوبوا على قراءة القرآن، ليضفي ذلك عذوبة إضافية لرهبة المسجد، وطالبهم أنْ يضعوا أحكاما للتجويد،

حتى يتعلمه كل محب، وأنْ تكون هيئة لتيسير التجويد، وتضع له أحكامه، لطراوة تميزهم في خبر درس النغم. حتى يكون الصوت الجميل يملأ الأرجاء بصوت يسمعه ويتمعن بها أجاد المعبود..

4

الكوفة خارطة الخشوع، وأسرارها تحمل كلمة الله الباطنة، تلك الكلمة التي تصل عالياً، وتنقل نفسها من مكان إلى آخر بواسطة زورق العقل الناقل لها.

5

بنفسه وضع قناديل زينة إضافية ليميز ذلك المساء، جعل في نهاية المسجد أربعة من أشهر صانعي الحلوى قد رتبوا أطباقهم المميزة، وبقيت الناس تتوافد إلى المسجد، وتتراصف قربه، وبعده وخلفه..

أشار لشقيقه أنْ يصلي بهم هذه المرة، أيضاً.

بعد أنْ نادى المؤذن للصلاة بدأت صلاتهم، والناس توافدت حتى امتلأت الصفوف.

انتشرت رائحة البخور تعطر أجواء المكان مختلطة مع رائحة الحلويات بمختلف صنوفها..

قال:

- *"ليلة عيد مباركة أعادها الله عليكم بالإيمان والمحبة"* ..

وأخذ أغلب من كان يحيط به، على التوالي، يقبلون له يده، ولكنه منعهم بإشارة حاسمة من يده بتأجيل ذلك إلى صباح الغد، فهو الأول من عيد الأضحى المبارك..

6

في تلك الساعة من الليل، طلب منهم إحضار السجين إلى غرفة الإمارة، مقررًا أنْ يبيت معه. ومترفقا به آخذا بوصية أمّه، وأجلسه كما هو مكتوفًا على كرسي الإمارة، والغرفة خالية مما عداهما.. حيث همَّ السجين بتسليم الوالي ورقة:

- *"خذ هذه ورقة أقدارك"* ..

ناوله إياها ثم أكمل له القول:

- *"لا أريدك أنْ تطلقني، فالله قد كتب علي ذلك فما تقرر أنْ تفعله بي، كان مكتوبا علي منذ الأزل أنْ أراه، وبيديك هاتين اللتين لا تنفكان عن زيادة الاستحكام على السيف. هذه ورقة تافهة لا أريدك أنْ تبالي بها، الذي كتبها يعرف أنّني لن أخفيها عنك، إليك إشارته، كأنه يخيّرك في قتلي الذي أنت ماض إليه لا محالة"* ...

- *"إنْ أخذت كأنك تأخذ رأس أمّك"* ..

تلك المرأة التي كانت تقسم الخبز فيما بيني وبين أخيك. عظيمة القلب كظيمة الألم.. منحتني حبها فمنحتها حباً أكبر كما منحت حبًّا لأمّ ودعتها في نيسابور.. أعلم بأنّك تختار قتلي كي لا تُقَتلَ، كأنما سوف تختار قتلها قبح الله كل قاتل آثم.

كان يكلمه عن ورقة دست في جيبيه بينما قيد إلى السجن.

مدينة لم تخن وأنا لم أخن أبداً، لكنها البداية التي بعدها رقبتك.

7

مضى يحدث المكتوف؛ أنّه شاهد شاباً يافعا ماضيا في طريقه، وقد علق إلى ظهره حابلة نبل، ولكنه قد ملأها حزمة من النايات[26]، قال له ما الذي جعلك تهين عدة الحرب، بهذه؟.. أما تعلم أنّي قد منعت الغناء والطرب، وأنت وضعت فيها ما حرمته، فقال لي "والله يا سيدي أنا أكرمها أكثر، فهي لأبي، وأنا أسعى لبيع هذه القصبات كي أعيل أمي وأخواتي"، قلت: "ألست تغني عليها"، فقال "كيف يحرم من ينطق باسم الله".. قلت له كيف؟ ثم سحب واحدة من الحابل، وراح ينفخ فيها برهافة، سمعت منها نغما جميلاً، ثم أعاد عليَّ القول "مولاي أما سمعتها تقول "اسم الله".

26 – نايات: جمع ناي آلة موسيقية مصنوعة من القصب.

ثم قال بينت له أني تنكرت، أول الأمر، ولكني بقيت أسمع الفتى بكل قوله. ولكن أمَّ الفتى قاطعتنا بعد أنْ خرجت إليه، ورمت عباءتها فوق ابنها.. بسرعة خاطفة، لتحميه. وهي تقول:

- "ليتك مولاي تقبض روحي قبل روحه"..

ضحكت وقلت للفتى:

- "إنْ تركتك هل لي أنْ أراك مصليًا فجر العيد"..

قالت المرأة بخوفها عن الفتى:

- "حتما يعدك بذلك يا مولاي".. ثم أوصيت له خيرا.

8

أحبّ بناء المساجد، وتوسيعها، والإشراف عليها بنفسه، وقد وسع كثيرا في المسجد الأموي الذي توسط مدينة "الكوفة"، إذ جعل له خمسة أبواب، مسمياً كل باب باسم حسب اتجاهه، الغربي، الشرقي، الجنوبي، الشمالي.. أما الباب الخامس الذي كان يتوسط الشمال الغربي، فأسماه بسم باب "الإمام".

وعند كل باب جعل مكانا للحراس الذين يدققون في كل ما يحمله الداخل. أمّا "باب الإمام" فاعتبره الباب الرئيس الكبير، ولكن لم يره أحدٌ أنّه يدخل منه قط، برغم من أنه يقابل قصر إقامته، حيث لا يعلم

أحدٌ من الناس كيف يدخل الى المسجد أو يخرج منه، دائما يعهدونه حاضرا بينهم، لم يتأخر عن ذلك أبداً، رغم بعاده عن قصر الإمارة، أو قربه..

إنَّ عنايته بالمكان تفرض هيبة على القادم إليه، يجعله مندهشا برونق عمارته، كان يلاحظ فائدة ذلك في بيوت الله للديانات الأخرى. بقي يقترح على التجار الكبار، أنْ يمنحوا ما تجود به أيديهم إلى بيت الله ومما يفيض عليهم من وفرة الخير، والتجارة الرابحة.. حيث كان يمنح كل تاجر منزلة وحظوة حسب عطائهِ، ومساهمته في تعمير المساجد.

المال كله مال الله، فهو من "يعطينا لنعطي منه" يقول على الدوام *"نحن أمناء على مال الله وليست أيدينا سوى المطلقة لها من خيره"* ..

اختار بنفسه المصابيح التي تضيء بالزيت، أو بالشمع، وزعه بنفسه على المداخل، واختار الفرش وألوانها الزاهية، وراح يشتري أجود أنواع البخور، ويختار أجود المؤذنين الذين يتميزون بجمال الصوت والمقدرة العالية.

9

لا ينام كعادته، بل يبقى هائما في ممرات القصر، لوحده ممسكًا بقبضة سيفه، ويمشي على أطراف أصابعه، فهو يكره أنْ يسمع صوتًا لوقع قدمه، كما يكره انْ لا يسمع وقعًا لقدم أحد، فيعده بحبس أو

قصاص عادل. يبقى متجولاً على السطوح يراقب المدينة بأضواء مشاعلها المتراقصة، تلك الجولات متعته القصوى، حيث لا يرغب أنْ يصحبه فيها أحدٌ، يمرّ على حراس الأبواب الخارجية، وحراس أسوار القصر، وبقية كل المرافق الحيوية، حراسهُ كلهم يقظون، يتأكد بنفسه بأنَّ كلاً في مهمته.

- *"الحارس لا ينام إلا في سريره، أو قبره"* ..

على كل حارس أنْ يلتزم بأسرار القصر فالحراسة أسرار، يقف لا يلتفت إلى مولاه إنْ سمع صوته. فقد يكون بصحبة حريمه، أنْ يكون حذرا، وأنْ يتابع زميله في الحراسة لا يشغله سوى الحراسة... توصياته هي ما يحفظه كل جندي حارس..

في منتصف جولته وصله خبر فشل محاولة تهريب السجين من سجنه السري.

10

سعة الإمارة ممتدة على مدى شرق الأمة الإسلامية، جعل من خيرة قادة جيشه، أمراء على وحدات منها، ثم جعل لهم فيها صلاحيات في التمدد والتوسع ثم دعمهم بخبرته الميدانية، ووصاياه العسكرية الصارمة..

صارت لديه وحدات بعيدة، مثل خراسان، والبصرة، والكوت، ونينوى.. استطاع إدارتها بقبضة وفطنة. على الرغم من ذلك جعل على

كل منهم عمال متابعة بالأخبار كلها، وكأنه حاضرٌ فوق كرسي الإمارة الذي يجلسون عليه. الطاقم الذي حول كل أمير، أصلا معين من قبله، ولا يحق لأي أمير أنْ يبدله، وكانوا ينقلون الأخبار كلها، أولاً بأول. وكان يرسل إليهم رسائله التي يثبت لهم معرفته بما يحدث، حيث يرسل النصح والمشورة في أيّ أمر قبل أنْ يصل رسول الأمير إليه. إذ يجد الأمير منهم الإجابة قبل السؤال.

11

ترفع عن الشراب، وعن حفلاته بكل أشكالها. إلا أنّه لم يجد الحق في منعه، فيقول: - *"يكفينا الله جعل لنا منه وعدا في جنته"*، و*"أن يبقى مبذولا لشاربه"*، و*"لأجل أن يتذوقوا من القليل ليعرفوا طعم كثيره بما هم موعودون"*..

لم يعترض عليه فقهاء القصر الأموي في الشام، ولم يشر أحدٌ عليه بمنعه، حيث القصر يطلب من الإمارات أجود أنواعه وأطيبها، ويكرم أمهر صانعيه.

12

كانت معه في الغرفة، تنصت إلى لهاثه المحموم. لم يعد فيه ما يجعله يكمل شهوته إلى نهايتها. بالرغم من أنّه شرب شراب الفحولة

المجرب، إلا أنّه ارتضى لنفسه أنْ يستمتع بلمسها، أنْ يمرر لسانه فوق الحلمتين النافرتين بجمال لم ير مثله. إنّها ساحرة كالأبنوس الأبيض الذي يطلع له من اللهيب المشتعل ويحرقه عصبه. بدا كمسكين معها، منكسر، لم يسعفه الاحتدام الذي كان يمور تحت أديمه. لم يستطع أنْ ينال الفاكهة الطيبة. ولكنه بقي معها يسمع منها أنينها المكتوم، الممتزج بدمعها الكظيم. إنها وافقت أنْ تستسلم له من أجل حبيبها، وعدها خيراً، وهو كريم الوعد.

ثمة طرقات على بابه. سمعت أنَّ شقيقه لحق به، كأنه يستوقفه عن سعيه المحموم.. قائلاً: "جرت محاولة فاشلة لتهريب السجين الكافر من سجنه"..

13

استقرت كلمة الله في ركن له معنى، وإن تعددت المعاني فإنَّها تحمل من عظمته، وكل كلمة لا تحمل عظمته، بركن واحد، واتجاه واحد، وليست إلا كلمة بشرية، ليست تستحق منا أنْ نلتفت لها، فهي كلمة عادية تركض بين الكلمات، ولا تثير أحداً. أمَّا كلمته فهي الجازمة بأمره، المفتوحة على أسراره، تكشفه، تدل عليه، لأنها من منطوقه العظيم، ومنطوقه لن يكون محصورًا في اتجاه واحد.. إنّها الكلمة التي لا يمكن لبشر أنْ ينطقها وإن استطاع نطقها فإنَّه يكسر بها حاجزا

كونيا.. كلمة الله تمتلِئ بها العقول، وتدوي بها حناجر الرياح والرعود، وتهدر باسمه العظيم المطلق.

14

لم تطل عليه ساعات ليل الكوفة، في غرفة كرسي الإمارة، حيث تحولت اللحظات وهي تمضي آناء ليل كسير بصحبته السجين مكتوفًا.

كأنه يسأله الصديق فيجيب عليه بما يعرف. لقد عاد به إلى درسه أيّام "اليمن" عندما كان معلمهم يضربهم بالعصا عندما يتلكؤون في حفظ الآية من القرآن، لم يعثر على المعاني التي في ذهنه التي كان يفسر بها تلك الآيات البينات..

بدأ حديث الليل؛ وهل الله بشرٌ ليتخذ من إبراهيم خليلاً، هل هو صاحب معرفة ليتخذ منه خليلاً، يصغي إليه، يتعلم منه، الله هو المعلم فكيف يتعلم من إبراهيم، الذي يتخذ الخليل باحثاً عن إجابه، ولديه أسئلة وجود قلقة.. إنّه الله العظيم المطلق الذي وضع العلم الأبدي.. كيف يصغي لبشر كي يتعلم منه، وهو من أعطاه العقل. الأمر برمته مسحوباً على أنَّ الله لم يكلم بشرًا، إنّه وضع فيه كلمه، الله هو السابق، إنّ الله لا يسبقه إلى الوجود أحد، الكلم لم يسبق الله. الله العظيم المطلق يعلمنا أنْ نصغي لحواسنا، أنْ نتنفس بعمق هذا الهواء العليل الجميل لتعرف عظمته. كيف لأمير مثلك أنْ يحبس نفسه في غرفة بلا شباك،

ويمنع عن أذنه زقزقة العصافير، الزقزقة، التنفس، الجمال في متعة الأشجار؟.. أنت كائن قد تحتاج إلى شجرة، نظره، تحتاج أنْ تراها لتعرف سرّ الأشجار.. إضافة لما تتقن من مسك السيف فأنت لا تتقن سحب الهواء عميقا إلى عمق رئتيك.. أنت تحارب الله، في أسماء الله حين تحارب حواسك التي أعطاك إياها الله.. كن بها إنسانًا لتعرف كلامه، وتشعر به ينبض في سويداء قلبك... غرفتك الظلماء هذه عقاب لنفسك، إنّه الله الذي أقرّ عليك عقابه. تنفس بعمق تطلق بأخذ المعنى إنك يا أبا الهيثم، سوف تموت في الموت لتأخذ منه نصيبا أكثر مني، أرى موتك أبشع من هذا الموت الذي تستمتع به وأنت تقطف رقابهم، واحدًا تلو الآخر... إنك تحتل مكاناً زائفا في هذا الكون المطلق، لقد وضعك الله لتكون ممثلاً لرحمة زائفة أنت تقصدها، ولا يعرفها غيرك.. لأنك تغير حقيقتها لتكون محتلاً لعقول الناس بسيفك: "احتلال الأرض يبدأ من احتلال العقل واحتلال العقل يبدأ من احتلال اللغة"، أطلق لها المعنى ولا تحبس اللغة بقصد يقيدك وحسب.

كان الليل يمضي وكله إصغاء..

إصغاء الاكتشاف الذي يعلم علامته، ولكن الرجل قد وجد ما سيقوله للناس في خطبته، بعد نيته.

15

طلب الوالي من خدمه إحضار المزيد من صنوف من الطعام والشراب، وفكّ القليل من وثاقه ليؤمن له حرية الأكل والشرب. لكن الجليس الأسير كان لا يريد سوى عدم مقاطعته ليبقى يسمعه ما يريده.. حتى يحين عليهما أذان الفجر، وتمضي بقية الليل عجلى..

16

أخفى شقيقي مجلداته "السبعة" في مكان لم يخبر به أحدًا، ولم يعرف به حتى تلميذه النجيب الذي أرادها منه منهجا لجماعته بكل السبل، ولم يجدها بعد تدقيق بحث.

أشارت الأسئلة "لم تكن معه يوم أخذه الوالي إلى سجنه"..

ولم يكن يوم قبض على المعلم الجليل حاضراً في الكوفة، ولم يسمع به وجاء القول الأكيد أنّه لم يكن في سجن الكوفة، على الإطلاق.

لكنه التلميذ النجيب استطاع التفاوض سرًّا مع "ابن الوالي" أنْ يطلقه مقابل كمية كبيرة من الدراهم الذهبية، ولم يتوان التلميذ النجيب في تدبيرها، وكان ذلك الاتفاق، قد ضمن له التسليم حتى أودعت الدراهم لدى أحد التجار الثقاة، عُدَّ السند الضامن بين الاثنين، فأخذ الدراهم مقابل إطلاق المعلم الجليل، الذي تعهد الأخير بتسليمه حياً.

مصنف/ د/ 6: المؤلف: محذوف

1

الوجدُ لن يَضلّك طريقاً إلى الورد إن اتخذت الشم، سلمهُ القياد حتى تجد الطريق إلى الطريق، لتكون عاشقاً في عشقه، تبقى مُسرْنّماً في هديه، مُعلقاً في ملكوته، وطائراً في فضائه المعلوم.. تسير داخله باتجاه نقطة طيبة وأخرى أطيب، وأطيب منها. ليس المهم أنْ تمتلك ناصية الأداة، لتكتب؛ وإنَّما أنْ تمتلك ناصية العقل الذي يقول ما يميزك.

(إنَّ كل ما هو موجود، بما ذلك العالم ككل والوجود الكلي، يشمل في نفسه على الله على هيئة أفكار ومعان، فإذا لم تجعل نفسك مساويا لله فإنك لن تستطيع معرفته، لأن الشبيه لا يعرفه إلا شبيهه[27]*)..*

ما لم نعلمه يستحق منا أنْ نضعه بصيغة سؤال، بذلك سوف يبتدئ لدينا التفكير جديا فيما لم نحسنه، السؤال بيان كل بحث..

---

27 – نص هرمسي.

2

لابن الوالي ابن عم يكبره بأكثر من شهر، تنافست الأمهات فيما بينهن على الحظوة في قصر الأمير، تنافسن بواسطة الأبناء على القياد في كل شيء، وتجاوز تفوقهما على بعض، أمام الأهل والأحبة..

3

في الكوفة يتصارع طرفان، كأنما نزاعٌ أزليٌّ، الأول يفرض وجوده من مناخها، والثاني من مكانها كمحطة طريق فارقة. هذان الطرفان تحولا إلى صراع دامٍ رفعاها لتكون جامعة شاملة..

فيها أنين منارة نقلت إلى الشام...

مسافة أم شقاق يقرب المتباعدين..

وأيُّ همٍّ سقيم نفذ في الجلد وصار بمكمنه الصديد.. بكراهية الرافض، أو بكراهية الناصب على السواء.. حيث صار للنص الواحد أكثر من إعراب، بابا يفتحه الإعراب البصري والباب الثاني يفتحه الإعراب الكوفي..

يتقدم الأول على الثاني فلا فرق، أو يحلان على بعضيهما.. ليتحولا سويا من معنى إلى آخر، أو ليثبتا في معنى أهل يريدونه، ولم يسلم جلجلتهما إلا ثالث قد اعتزل.

4

لا فرق بين الشبلين، الأول يراقب الثاني بدقة متناهية، ويحرص على استثمار إخفاقه أو نجاحه، ليتعلم أكثر من نظيره، أين يضع ماله، وأين يستثمره.

بات الاثنان يسيران معاً بخطٍ متوازٍ في طريق واحد ولا يلتقيان. متواجهان يفرض كل منهما ظلال وجوده على الآخر، ظلاً خفيفا صار كسلطان بعض على البعض، وكل منهما بات يكره سلطانه. بات كل منهما يشتري بالمال ما يريد من حظوة، حيث للناس من حولهما ذممٌ تشترى وتباع، ما دام البعير أينما يحلّ بتعبه، تكون إرادة الله. حتى فاحت من التوتر الذي برز بينهما رائحة المكائد، وصارت تشمل أرواح الناس التي ليس لها جناح لتطير لتهرب من الشرر الذي يتقادح بينهما.. بقيت النسوة بينهما، السلاح الأكثر فتكاً في معركتيهما. فأخذت دولتهما تمرّ قسرا في فصل خريفها، لتتساقط الأوراق مبكراً من بعد صيف دام.

5

لست آخر من يعلم كيف كانت تسير هذه الموازنات غير المتوازنة. المتناقضة، والمتعارضة مع بعضها البعض..

لست في حيرة من أمري؛ أبداً بينما أحدِّث حماري المسكين عن نفسي الضائعة، أتفكر بالسيف الذي فرض الوهم، وصارت فكرته تجري وراء وهم، وغالبا ما توهمنا الأوهام حتى نضيع، بين وهم الواهمين، معهم في تيههم، وكل منهم لا يكشف زيف ما يتبعه، لأنه قد سار، وسار مسافة لا يريدها أنْ تكشف بأنها أول الخسارات، وأفدحها، أسير مع السائرين، ولكني في قرارتي لا أتبع الرواة، بل أتبع قلبي، ففي القلب أغنية تطلق في الهواء لتعبئة الرئتين من هواء نقي خالص..

6

ثمة أناس في كل زمان ومكان، يعملون في حفظ المال، ويحفظون لصاحبه السرّ، إنْ أراد. ينتهجون نظاماً صارماً، دقيقاً.. لا يتوانون عن الموت إخلاصا لأجل من يعملون لصالحه، أولئك ظاهرون بين الناس، ولكنهم خزائن ليس لها حد، متعاونون أبداً مع بعضهم البعض بتماسك متين، ليس من السهولة خرقهم، كل منهم يخفي أثر الآخر.

7

وقع عليه الأمر بأذى شديد حينما اكتشف بأنَّ محظيته من بين جواريه الحسان هي التي كانت طعما لتسلم سره إلى غريمه "ابن العم"، ولم تكن له بوفائها خالصة.

فأمر بقطع لسانها حرمانًا لها من الغناء، أقسى عقوبة لمغنية كانت تسترزق من عذوبة صوتها، كأحسن مغنية في ولاية العراق، اختار لها كي يحرمها ويحرمه من ذلك الصوت الذي ألهبه غراما بها وأنْ يكون هو آخر من يسمع منها أغنيتها الأخيرة، ورغم ذلك لم يشف غلّه منها بعدما علم بخسارته المالية المتفاقمة بسببها، فعاد إليها ليجعل منها الرسالة الأكثر فعالية عندما قال لعامله:

- "قص لسان امرأة ليس حلاً، بل قتلها في فراش عشيقها أبلغ رسالة إليه"..

حتى وقع ذلك الحدث الجلل على "ابن أخي الوالي" كالصاعقة، بعدما وجدها في فراشها مفصولة الرأس، كالشاة، والدماء منها تغرق له سريره. بعد ليلة ليلاء لم يعِ كيف انتهت بذلك الحادث، باتت إشارة عظمى لبدء شوط جديد من الخطر، وما كان عليه ألا يبدل جميع طاقم خدمته، بعد أنْ حجزهم للتحقيق معهم أيامًا حتى استطاع التوصل إلى اثنين من خائنيه تم قتلهما وتعبِئتهما في صندوق ذهب فارغ، وأرسلهما إليه، وهو يقسم "أنْ يردها على ابن عمه". فقرر أول الأمر الذهاب إلى عمه باغيا منه إنصافاً في ابنه، ولكنه استكان بنصيحة تقول له:

- (أيُّ أبٍ يحقق إنصافا بابنه؟).

بقي العاشق يئن ألماً، بينما تراوده صورة العشيقة الجميلة وهي ترفل بدمها، كأنها لم تمت مرة واحدة بل كانت تقتل أمامه في فراشه كل يوم.. يتذكرها، بعد أنْ كانت خير محظية قبل أنْ تتطوع له، وتتمكن من خداع ابن الوالي، بكسب ثقته، ومشاركته فراشه واستراقها لأدق أسراره، وأين يخفي ثروته.. حيث انتزعت.

- "لأنها هي بالأصل متحصلة من الناس قسرا"..

ولم يتخيل أنْ يكون ثمن ذلك ذبح مغنية عذبة الصوت، ذكية النفس، بديعة الحسن، عاشقة للشعر، فدته نفسها برغم من أصلها غير العربي، كانت بليغة اللسان ولها إمكانية حفظ الشعر، وتلحينه، امرأة أبدعت جيدا في ما تعرفه من فنون.

(أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسـداد ثَغْـرِ[28])...

8

كيف يمكنني كتابة كل تلك الكلمات التي ملأت حوض مجلداتي السبعة، أنا من يكتب، أم الله هو الذي خطّها بخط يدي، أرتجف، يهزني هزاً هذا القلم، أتبعه، أنا من يتبعه، عقلي يقول اتجاهه، ولكنه أبلغ من عقلي، يقودني، يقودني حيث يكتب كلماته العظمى، إنَّ الله هو الذي يريدني بما أكتب. لا جديد في النفس إلا بعلمه، الواحد الأحد

28 – الشاعر العرجي وهو محمد الأموي بن عبد الرحمن..

حيث يجري في صدري عفياً، وأنا لست لاهيًا، أراقب القلم الذي يبث نجواه، معاني طائفة كلها وجد، مجرد أنا، ودواتي مبتسمة، تدور فيها أضواء متراقصة في حبور...

لا أدري أيّ سرّ في هذا الشعر، ولا مصدر ما يوحى إليّ...

9

الوالي وشقيقه باقيان في تحالفهما الأبدي، ولن يفكه أي سبب مهما كان قاهراً، تحالف الشقيق مع شقيقه تحالف المصير الواحد، وكأن الموت هو من سيفض تحالفا أبدياً. بقيا يجمعان الثروة لتعزيز السلطة، يغدقان على من يثبت لهما أقدامها في الولاية، ويمحقان أي معارض..

تحديا الظرف بذلك الحلف الذي لم يكن له إلا الموت. أمّا الأولاد فهو فشلهما غير الظاهر، وكلّما كبرا تعمقت النزاعات بينهما، من نزاعات سرية، باتت متحولة إلى نزاعات علنية.. حتى شكل أحدهما خطرا على الآخر، كالنار في الهشيم التي زحفت سراً.

لم يعرْ أي منهما أيّ اهتمام جدي بالهوة العميقة التي تعمقت بين الأبناء، واعتبرا ما حدث كله، مجرد عبث أولاد، عابر، قصرهما الواحد قد كان منشطرا يتنازعه التنافس الدفين والعميق بينهما، ما بين مؤيد ومعارض، ولم يعرف الأبوان أنّ ذلك الأمر يحقق وبالاً عليهما وراح

يتسرب عبر رسائل متتابعة قد وصلت "الخليفة" في الشام، تفتضح أسرارهما..

10

بات همّ التلميذ النجيب.. إنقاذ رأس معلمه، بكل السبل، أوشك على أنْ يتحقق مراده، بتهريبه، من سجنه، ولكن الأسرار لم تبت أسرارا، متاحة، إذ عرف شقيق الوالي بخطة ابن شقيقه، حول إعداد الخطة المحكة لتهريبه.

لما كانت تلك مشكلة خطيرة أنْ يفلت المحجوز من أسره، فتطير رقابهما بأمر الخليفة حيث علقت المسألة بأمره، الأمر خطيرٌ جدا، ولا بدّ أنْ يترصده.

ليس من أجل شقيقه، لكنه مصير عائلة بل قبيلة "بجيلة" كلها التي تمسك أغلب إداريات ولاية العراق. ومن أجل نفسه، فكلهم يصفون تحت جنح والي العراق، وجوده مرتبط بمصيرهم، أدامه الله عليهم يحسن لهم التدبير والتفكير، بعد أنْ رفعهم من حال إلى أفضل. يكثرون الدعاء إلى ولي نعمتهم الأبدية فلا بدّ من حمايته، بأيّ ثمن..

فكان على الشقيق أنْ يتصدى لذلك الأمر، وأنه يجب أنْ يعلم شقيقه الوالي بتلك الخيانة الكبرى، والتصدي لها. فما كان عليه أنْ يطلب استضافة الأسير في غرفة كرسي الولاية حتى أذان الفجر..

سعى التلميذ النجيب من أجل رجل بما في وسعه، وبكل الوسائل، حتى إنّه عمد إلى إرسال ورقة تهديد ليدسها في يد الأسير طالبا منه أنْ يضعها في يد الوالي أو شقيقه مساومة على رأس والدتهما في الشام. فإنْ أطلقاه، ترجع أمهم إليهم..

صلاة الفجر 10 ذي الحجة. سنة (119هـ)

1

الاثنان في غرفة الإمارة، ارتضى الأمير أنْ يجلس على الأرض، ومجبراً السجين بالجلوس على كرسي الإمارة المهيب، وأنْ يتكلم بما يريد، الأول يصغي بكل حواسه للثاني، مثل تلميذ نجيب، يصغي بتحفز، يتابع الكلمات التي تتراءى أمامه صوراً، كل كلمة في أصلها صورة، الصورة تعني مادة، فكل مادة لها وجود، لها كيان، وكل كيان له كتلة وحجم.

يصغي له، وهو يتابعه كمتعلم، ينظر إلى معلمه بإعجاب، غالبا ما يكون المعلم كالساحر عندما يتواصل بتسلسل أفكاره التي تنول سيل من الألوان المتدرجة تثير دهشة من كان بها شغوفاً..

بقي يسمع منه: (*متى احتاج الله إلى وسيط ينقل لنا بواسطته كلامه، ألا يعني ذلك أنَّ الله غير كامل، وحاشاه، حيث يستطيع الوصول إلى مخلوقاته، دون واسطة مبعوث، اختراعنا الوسيط لا يعني إلا شكاً قاطعا في قدرته، وحاشا الله العظيم أن يكون بعيدا عن البشر،*

أو منفصلاً، ويرسل لنا مبشرا ونذيرا، فلو أراد بقدرته أن يكون فينا لكان في لمحة، ولوضع كلامه فينا في أقلّ من رفة عين).

لكن طرقات ثلاث على الباب قطعت استرسال المعلم البليغ عن مواصلة حديثه. فردّ عليها الوالي بصفقة من يديه إشارة منه الموافقة بالدخول عليه.

ودخل عليهما خادمان من الصبيان يحمل كل منهما في يمينه إبريق ماء للوضوء، واليد الأخرى حملت إناء لجمع الماء بعد الغسل، تردد المعلم الجليل في التقرب إليهما، كأنه كان ينتظر إذنا للسماح له بالوضوء، حتى هزّ له رأسه موافقا، ثم بادر إلى سبقه للبدء بالوضوء.

ولما انتهيا من الوضوء، وبعد أنْ خرج الخادمان من الغرفة، قال "الوالي" مبتسماً:

- *"قبل قليل قد سلمتك كرسي ولاية العراق وكان بإمكانك أنْ تأمر وأنت فوق الكرسي بعزلي وتنصيب نفسك وأنا من يسمعك صاغرا"*، ابتسم المعلم ابتسامة أكبر، كأنه يردها إليه، وقائلاً:
- *"ومن لا يعرف أنَّ الولاية لحامل السيف"* ..

وقبل أنْ يهما بالخروج تأكد الوالي جيدا من متانة قيد سجينه..

2

دخل الوالي بصحبة السجين إلى المسجد بابتسامة، ثم بدأ بركعتين تحية للمسجد، بعدها ابتدأت الصلاة امتلأت بتسوية الصفوف. كان المسجد ممتلئاً بالمصلين القادمين من كل حدب وصوب.

تقدمهم في الخط الأول القضاة الثلاثة، وبضعة أخرى من علماء الدين، كذلك توسط بينهم قائد الشرطة وبضعة من عماله، ورئيس الدرك السري وبضعة من عماله، ومسؤول السجون وبضعة من عماله، كما شغل الخط الثاني أكبر الوجهاء والكبار، والتجار.

3

كنت بينهم عيناي معلقتان بحثا عن شقيقي الذي دخل بصحبة الوالي، مكتوفاً بملابسه البيض، نظيف الهندام كعادته هادئ الأسارير، والابتسامة تعلوه، بقيت أنظر إليه، وكأني ضيعته.

كنت أتبع إحساسي، وسوف يطلق سراحه بهذه المناسبة الكريمة، بقيت مترقباً لتلك اللحظة.. متطلعا من مكاني بين صفوف المصلين التي تسجد لله وتنهض فتقطع عني خط البصر الممتد بفضول عبر الفضاء.

4

أسئلة الوجود هي التي تجعل الكلمة عاقلة، الكلمة بالكلمة تبثقها بتدرج فيصل الوطر إلى أساسه محققًا وجوده، الكلمة الممتلئة لا تقال لوحدها تشبه الضوء، لن تحتاج إلى شفاه ترسمها، أو حنجرة تموسقها.

إنَّه الله الذي رسم وجودها بلا رسم، ترسم ذاتها بذاتها كفعل مطلق، لا يحتاج إلى تردد، إنَّ الله يُبسم لنا وجوهنا ليبث السحر في بعضنا البعض، إنْ الله ينطقنا جميعا لبعضنا، وضع لنا نظاماً شاملاً يجعلنا نتحرك دون حرية منا، وفق مشيئته، لقد قدر لنا قدره، ووضع قانونه العام، فصرنا نتجاذب أو نتنافر، كل حسب مشيئة الله، وفق قياس مكنون، لو تقدمت الشمس لأحرقت الأرض كما تقول المعرفة الإنسانية، الله الخالق، الصانع، الماهر، الأعظم *"للعقل أجمع"*، ولا أعظم من يكون فينا أمره، إنَّه النظام الصارم، وبقية كل المعاني بشمولها..

5

لم تضل أيّ نأمة أو إشارة يفهم منها شقيقه شيئاً، بقي الوالي منشغلاً في صلاته، يسجد لله تعالى الركعتين المقررتين، ولكنه أضاف إليهما ركعة ثالثة، إكرامًا لغاية في نفسه، كان يصلي والبسمة تعلو وجهه، كأنه فرحٌ بمقدم العيد، وما انتهى حتى فاجأ الجميع أنّه ما زال

يربط "المعلم الجليل"، لم يأمر في حلّ وثاقه، وكأنما من كان عند أسفل المنبر قد زاد له شدّ وثاقه، بحبل سميك، أربع لفات حول ساعديه، وشدّه مسبلاً كفيه إلى أسفل.

لم يبِنْ منه شيءٌ عندما كان في الأسفل حيث المنصة عالية وتحتها ستارة تخفي رجلين قد استقرا خلفها، ولما نظر إليه نزل وهو يقول صارخا بالناس *"أيها الناس"*، كنت من بين الناس الذين يحسنون الظن، منتظرا أنْ يطلقه، ويعيد له حريته.

بعض الناس كان في ريبة من أمره، وأغلب الذين في الصف الأول تماسكوا في وقفتهم كأنهم يتوقعون فعلة مصيرية سوف يقوم بها "الوالي".

كان المكتوف بالحبل، محرر القدمين، فساعدته قدماه على صعود درجات المنبر التسع، الذي بات مرتفعا حتى يراه أغلب الناس من أبعد زوايا المسجد.

وما أن سحب نصله تبادر لذهني نيته قطع الحبل، هللت متنفسًا داعيا الله الترفق به، ليعود إلى أهلنا في "نيسابور"، ويبتعد عن أجواء "الكوفة" التي تغلي وتشتعل شراراً.

كأنما كان الرجلان يبسمان كل منهما على طريقته، حيث ابتسامة الوالي مصطنعة من بعد تجهم، أي أنّها صفراء لها أكثر من غاية، بينما ابتسامة "شقيقي" أخذت تكبر كأنّه يقاوم بها ألم الحبل الذي سحق

كتفه. ابتسامتان متعارضتان، ولكنهما مليئتان بما لم أعرف، فأعاد صرخته "أيّها الناس.. *(أيها الناس ضحُّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالمعلم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليما)*..

ثم بادر بجرة واحدة، واضعًا نصله على رقبه المعلم، وساحبا إليه النصل تاركا الرأس تسقط دون أنْ تسقط عنه عمّتهُ، حيث بقي الجسد منتصبا، متخشبا كأنه يريد البقاء بانتصابه حتى آخر قطرة..

6

أثنى جميع رجال الدين عليه وراحوا بتكبيرهم يشكرون ما فعله الوالي، وكأنما قُبُل التهنئة تصل بمباركة يمينه وهي ممهورة بدم الرجل الضحية. وبقي صدى الصوت يرتجع من الجدران:

(أيّها الناس انصرفوا إلى منازلكم وضحوا بارك الله لكم في ضحاياكم).

7

بقيت كالمشلول في المكان بعد أنْ همّت الناس بالانصراف، وبعد أنْ خرج الوالي بصحبة المهللين، وراح العمال يستعدون لتنظيف المكان من الدم الذي نشر على الأركان، ولم أكن مصدقًا للذي رأيته بأم

عيني، أنْ يقتل شقيقي بهذه السهولة، وأنا فاغر الفم، لا أحسن القول، ولا أحسن أنْ أمد رجلي في خطوة واحدة إلى أمام.

حتى جاءني بعجالة أحد التابعين للتلميذ النجيب، ساحبًا إياي من يدي، وأنا في غير أمري، لا المكان مكاني ولا الزمان زماني، الصورة أمامي، غير مصدق لما حدث.

كيف له أنْ يذبحه، وقد أشاع لنا أنّه سوف يطلقه إلينا في العيد، تصرف فيه وكأنّه كبشٌ يذبح لوجه الله. وليس بشراً. أهي منزلة اختارها الله لشقيقي، لست أفهم شيئًا، كأني أطوف والدم من حولي يتساقط.

- "علينا الآن الرحيل عن هذه المدينة. قبل أنْ تبدأ شرطة الوالي بالبحثِ عنا".

8

لا أدري، كيف تعلمنـــا السيف في "نيسابور" على "حركات الساموراي" الرشيقة متحديان للموت، نتراقص تحت لمعة السيف الكاذب[29] نقهر الموت الذي يهاجمنا بغتة.

29 – سيف كاذب: سيف يستخدم للتدريب.

لم يكن ببالي أنْ من يستخدم السيف يموت به، وبأيّ سيف؟" طال رقبة شقيقي.

أ كلمته كانت سيفه الذي أنهكه؟!. لم يتدرب مثلي على الصمت، كنت أحكي كل ما يجول بخاطري إلى حماري المسكين، وكان يجيد الإصغاء إليّ، كم تحمل منّي، في الكوفة تعودت صحبته وأنا أحمل عليه الأوراق المصنوعة من البردي لأنسخ عليها ما يطلب مني، كنت أعاني فراغ الصديق الحميم الذي أحدثه عن هزائمي مع الأيّام، ولكني وجدت الحمار بديلاً، الكوفة علمتني حرية الكلام، فكنت أحكي لحماري كل شيء من الأفكار الجديدة، والاستنتاجات التي تفيض من عقلي، حيث أنا إنسان أتفاعل مع الأفكار، وأنتج مثلها لست من صخر، فأنا كنت أحكي مثلما تحكي الناس بعضها مع بعض بحرية، الناس تتكلم، وأنا أكلمه عن ما يخطر ببالي، البعد بين دمشق والكوفة لم يكن إلا يسيراً، لكنها ظروف أجبرتنا على الفراق، كنت أحدث حماري وأجعله يصغي بدلاً من أنْ أدعه يتحدث، فلو نهق كأنَّه يطالبني بحق علي، يريدني أنْ أزوجه بأتانٍ تليق به.

هكذا رحت أتدرج بالأفكار، ولا أحدث أحداً عنها سواه.. كأني عندما تركت "دمشق" المجادلة تعلمت في الكوفة الصبر والمجادلة بصمت تركته يصبر على أنْ يكون له أنْ يختار هكذا موت أوشكت أنْ أبكي لكن البكاء عصي علي، أردت الصراخ..

ولكن يداً سحبتني من يدي، وأخذت تسحب بي لتخرجني من المسجد، وجدتني أعود إلى "نيسابور"، محتضناً "نايي" أنفخ فيه ما لم أستطع من بكاء.

9

في خارج المسجد أمر أنْ يعقد قران الجارية التي سلبت له لبّه، بمن عفا عنه عفوا أميريا بشأن السرقة، بعد أنْ دفع للقاضي من نفقته الخاصة لمالكها ثمنها، وباشرت الناس الاحتفال بالعيد، بينما راح المنشدون ينشدون بعدله، وسماحته.

مصنف عدد8: نوع الورق: بردي/ معرب / المؤلف: محذوف. سنة: 121 هـ

1

بقيت محدثا حماري:

- "لن أكون متشفياً بنهايته، ولكني دمت له لاعنا ما حييت".

كما أحمدُ الله على كل حال، غير نادم على ترك مدينة "الكوفة"، حيث تركتها هاربا من سطوة الوالي وهي تشهد غليان الجور على واليها، أصوات ترتفع بدأت تهزّ البيت الأموي، بينما كان الخليفة أواخر شهوره يعاني من مرض عضال أصابه، وبقي الأطباء بخبرتهم يلتّونه[30] بدواء تلوَ آخر.

لكنه بقي بحزمه يقمع بعمّاله الأشداء أغلب معترضيه.

يومها؛ يوم الذبح خرجت من الكوفة موليًا الأدبار هارباً من مدينة أحببتها دون وداع الأهل الذين باتوا لي فيها أهلي وأحبتي.

30 – يلتونه: يدفعون الطعام إلى جوفه قسراً.

يومها؛ خرجت تعقبتنا فرق الشرطة بأمر الوالي، ولم تنل منا. قبضت على المشاركين في محاولة تهريب السجين، إذْ كان ذلك تجاوزا كبيراً، عليه أنْ يعالجه وأنْ يتخلص من المتورطين في ذلك..

وأثناء هروبي إلى "خراسان"، سمعت أنَّ أمَّ الوالي النصرانية قد ذبحت كما تذبح شاة على أعتاب بيتها الدمشقي. مما زاد الوالي في وحشيته وبقي يطلب رأسي بأيّ ثمن. لأني شقيق ضحيته المنتقم لها. بحث عني لجرم لم أقترفه، سوى رسائل تبادلتها مع شقيقي مؤدب الفتيان. الرسائل خبرته أنْ يجد ذلك الشقيق. بينما أنا نفذت بجلدي عائدا إلى موطن أهلي. بدأت أخاف من وشاة الوالي، وأقاسي مما يحضرني من كوابيس في عزّ النهار، الشعور بالمطاردة، في كل يوم على مدى السنتين الماضيتين، أرى جثة شقيقي متصالبة، ترفض حتى نزولها من المنبر تتطاير منها فراشات بمختلف الألوان مع شقشقة كل فجر، وكل مرة أتابع الرأس المقطوع بعمته، محاولاً تلقفه قبل أنْ يصل الأرض.

بقيت ظلال تلك الحادثة تطاردني، وإن كنت بعيدًا في "نيسابور"، أتلفت متخفيا في اسم بائع جوال على حمار أبيع للأطفال حكايات عبر صندوق دمى خشبي، أحمله على ظهر حمار بقي يسمع مني كل مواويلي..

الأهم؛ وصلتني أخبار موته العجيب، ولم أكن مصدقًا لها فمثله لا يمكن أنْ يموت، كالشيطان الرجيم له ألف رأس، وألف ذراع، غمامة تشلّ حتى التفكير، أسّسه الرعب في عقولنا، لا يمكننا نزعه، ولا أنْ

نحتمل الحياة أن تكون دونه بعد أنْ نهض كابوسه ليعادل لنا خيبة آمالنا، وصرنا لا نستقر دونها، أيعقل؛ أنْ دارت الأقدار عليه بدورتها، وتفرحنا بزواله. خبره وصلني سريعا، وقفت أتأمل الخبر، وكأني سوف أحيا بعده من جديد...

كأنما النهران فاضت بعطائها، والعصافير زقزقت فرحاً، وانجلت غيوم السماء بألوان قوس قزح.

2

كتب إليه الخليفة كتابا من فراش مرضه يأمره فيه أنْ يسلم ولاية العراق، إلى الوالي الجديد، ممهورا بختمه، وطلبه أنْ يحضر معه شقيقه بصحبة إخوته الأربعة من أبيه، وابنيه، وأربعة من رجال إمارته، رئيس الدرك العامل تحت يديه، بصحبة كاتب أمين للأملاك والضيع، كذلك مع أزواج بنات الإخوة حتى بلغ المطلوبون أكثر من ثلاثين عاملاً مع أبرز رجاله المقربين.

لكن الوالي لم يسلم إمارته للوالي الجديد. ولم يمتثل، بل آذى الرجل المؤتمر بأمر الخليفة. وسجنه بصحبة ولده الذي قدم معه، عدة أيام ثم أطلقهما، استهجانًا للطريقة التي طلبها منه الخليفة. لم يمتثل للأمر، كأنه غير مصدق ما جاء. حتى كتب الوالي الجديد مخبرًا الخليفة بما جرى له.

لم يرد عليه بكتاب، ولكنه أمر كتيبة من الجيش بالتحرك من "البصرة" لتكون تحت إمرة الوالي الجديد، وتحركت عليه كما لو كان تمردًا كبيرًا نهض به أحد الـ"خوارج".

3

أيضًا ما زلت أتعرق خجلاً من نفسي لأني لم أستطع نقل كتب شقيقي المهمة، كان أمر الحرق لمكتبتنا جاهزا لدى الوالي فهو سوف يستند إلى ما جاء به السلف الصالح، بحرق كتب كل زنديق كافر[31].

4

تمكن الوالي الجديد من المطلوبين للخليفة فردا فردا وسجنهم جميعا لمدة ثمانية عشر شهراً، باستثناء ابن شقيق "الوالي" الذي بقي سجينًا في الشام، بعد أنْ تحقق في جملة جرائم سبق أنْ قام بها.

31 – كتب ندمت على عدم نقلها من بيتنا الكوفي، فقد حسم عندما أمرها كما أشار "يحيى الكتبي" على "عمرو بن العاص" والي مصر بمحتوى مكتبة الاسكندرية العجيبة، طلب منه عمرو بن العاص أنْ يستشير أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" بأمرها. مكتبة الأديان العظيمة، والتي يجب التعامل معها بحذر، حتى أمره بتوزيعها على حمامات الاسكندرية لحرقها برغم علمه أنَّ أحد رفوفها كان يحوي على صحائف "داود" المقدسة التي جاءوا بها من "بابل" القديمة لأجل أنْ تحفظ..

أطاع الوالي الجديد ما جاءته من مشورة "الشام" والتي فيها مدونة بأبرز أملاك ذلك الرهط الفاسد، وأنْ يصادر ما تسجل لهم من الأملاك.. ضيع وقصور، وكل ما تعلق بهم من نسوة، وجواري، وعبيد، وبكل ما كانوا يتفاخرون به من جواهر ودنانير ذهبية، ليست من حقهم، حيث أرسل ما أمكنه من متحصلات إلى الشام. وما بقي من كنوز معلومة قد أخفاها طيلة السنوات الخمس عشرة، التي احتكم عليها في خزائن سرية، مجهولة المصير، تزيد على التسعمئة ألف درهم، حيث استغل نفوذه أبشع استغلال، وأطاح برقاب كثيرة من أجل المال، حتى ضاعف دخله بامتلاك ضياع كثيرة بلغت غلتها أكثر من عشرة آلاف درهم، ولم يكن مكتفيًا براتبه البالغ -عشرين ألف درهم- فكان يدخر بطريقته الخاصة ما يزيد على مائة ألف كل عام..

5

بإشارة الوالي لحق ابن عمه حتى أعتاب الشام كي يعود برأسه، بعد أن تيقن نيته بقلب طاولة الأوراق على جميع اللاعبين. فسار متخذاً طريقا مختصرا يتبعه عمال البريد العاجل السري، وهو غالبا ما يكون طريقا مختصرا بين البساتين الكثيفة. ثم دخل في أحد القصور المنيعة، ولم يكن لابن الوالي من سبيل إلى دخول ذلك القصر وقتله، فأضرم النار بالدار، فحرقت أغلب البيوت المجاورة، ولكن ذلك الحريق لم

يحدث إلا ضرراً طفيفاً بباب ذلك القصر. لكن ذلك الحريق التهم مجموعة من القصور المحيطة به. وأصابها بضرر كبير.

ومن حسن حظ المحاصر أنَّ الدرك حضر المكان. حتى عاد الابن إلى أبيه خائبا، بعدها طارده جند الخليفة، مطالبين به أمير العراق حيا أو ميتا من الذي قال لهم:

"إنا أهل بيت طاعة... والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه لأجل أي كان منكم" ..

6

كل كلمة ينطقها السيف هي الأمر الفصل البين، فلا الكفر كفرٌ ولا الإيمان إيمانٌ، والذي يحلل السيف ليس حراماً، السيف هو الاعتبار النهائي؛ السلطان، وقانونه!.

و"الوالي" لا يعتبر كافراً إلا في غيابه، ومؤمنا ما دام شاهرا سيفه، ومعارضه زنديقاً.

7

روي لي عنه أنّه وصلت إلى أمير المؤمنين حكاية امرأة حرة سألت والي العراق أنْ ينصفها، بعد أنْ قام باغتصابها أحد أتباع الوالي المخلصين، ويومها لم يكن منحازاً إلا لصاحبه، فقال لها:

- *"كيف التمست قلفته عندما أقبل عليك"؟*

ذلك الخبر نرفز منه الخليفة، وأزعجه.

8

ليتني استطعت أنْ أنقذ له بعض مخطوطاته..

9

كان الخليفة أمير المؤمنين يعرف جيداً حدود طموح الابن البكر لوالي العراق، وما وصلت إليه الأخبار، أحسّ أنَّ ساعة الحسم حانت، فالرجل لم يكن إلا داهية من دواهي العرب، بالرغم من أنّه لم يترك دليلا كافيا أنّه قد تحالف مع أعداء البيت الأموي، حيث لم يستطع أنْ يغدر به أحدٌ من الكوفة التي اتخذها من أهم نقاط استقراره في العراق، حيث بعث ذلك على ريبته منه، لأنه يعلم أنَّ الأعداء، يبحثون بالأصل عن المال.. قبل كل شيء، ولم يخسر الوالي درهما واحدا أمام أعدائه، بالرغم من بطشه الشديد بأيّ فرد يطوله، ولكن ذلك الأمر كان مبعث ريبة، وقد كتب الخليفة إلى والي العراق البديل خطة متكاملة لتفكيك المنظومة المالية الذكية التي كان يتبعها الوالي السابق، فهو قد خبر فطنته، حيث لا يدانيه في التاريخ إلا واحد مثله كمثل جده الخليفة الأموي الأول، حيث كان الرجل فطنا للمال،

وأحسن تدبيره، وكان يعرف أنَّ جده هو المثل الأعلى للوالي ابنه في كل شيء، فالرجل يسير على أثره، لذلك اشتد منه قلقا، وقرر أنْ يحسم أمره معه. أنْ يفكّك أسرار خزائنه.. أولاً، ونجح "الوالي الجديد" مع من معه نجاحاً منقطع النظير، بعد أنْ حجز كلاً منهم بمكان لا يعرف أين صاحبه، وأخذوا يحصلون على معلومة من شخص ليقوموها ويحصلون بها على معلومة أخرى وأخرى، كان تحقيقا سريا بمنهج ذكي حتى تبين لديهم منهم كل ما خزنوه، وأنْ يستخرجوا تلك الأموال الطائلة من خزائنها السرية، وكأنما خسرت عشيرة الوالي المعزول كل ما لديها من مال تستند عليه. ثم بدأ الوالي الجديد بتصفيتهم واحدا تلو الآخر، انتهاء بابن شقيق الوالي السابق والذي اعترف بالرقم التقريبي للثروة التي يخفيها شقيقه، وكان الوالي المعزول الوحيد من يعرف مكانها.

فكتب الوالي الجديد من جديد إلى الخليفة يستأذنه الموافقة باستجوابه وصلاحية تعذيبه، فوافق لهم الخليفة "*مشترطا عليه أنْ لا يموت*"..

لكن الكراهية جعلت الثاني يسرف في شتم الأول، وكان يرد عليه الشتيمة بمثلها

- *"إنك لأحمق تعيّرني بشرفي، ولكنك يا ابن السّباء إنما كان أبوك سبّاء خمر"*.

وبعد أنْ وصلت أخبارهما القصر الأموي، وكان الخليفة في أواخر أيّامه، طلب من الوالي بكتاب إطلاق سراحه، وأنْ يدعه وشأنه، بعد أنْ كان الخليفة مهتماً بتفاصيل ما يجري بين الاثنين، وبقي لا يسمع له طلبا بالمقابلة، مهما أرسل له من مقربيه[32]

10

اعتمدت سياسة البيت الأموي على الولاة العرب الأقحاح في أغلب وظائفهم، ولم يكن يهمهم إلا أنْ يكون من قومية عربية تواليهم بغض النظر عن الدين[33].

32- تاريخ دمشق / ابن عساكر/ باب معاوية الأول.

33- (كان "عمر" قد ولى "معاوية" حكم "دمشق"، وولى أخاه "يزيد بن أبي سفيان" حكم "الأردن"، وعندما مات "يزيد" ضمّ "عمر" "الأردن" إلى سلطة "معاوية"، فاتسع بذلك سلطانه. وبعد موت "عمر" كان "معاوية" من المقربين لـ"عثمان" حيث إنَّ "معاوية" ابن عم "عثمان" فلم يقم بتغييره. بل على العكس حيث ضم إلى سلطته الكبيرة "فلسطين" بعد موت حاكمها "عبد الرحمن بن علقمة"، وقام بعزل "عمير بن سعد الأنصاري" حاكم "حمص" وضمّها إلى "معاوية" أيضا. وبذلك اجتمعت عند "معاوية" الأجناد الأربعة وبسط قوته على بلاد "الشام" كلها ليصبح ذا سلطة عالية لا ينافسه فيها أحد. وقد طال حكم معاوية للشام، فأحبه أهل "الشام" وأصبح لطول ولايته وحسن تدبيره لأمور رعيته أشبه بالملك منه بالوالي. وكان الخليفة إذا ما أراد أن يسير أحد من المخالفين له والمعارضين لسياسته فإنه كان يرسلهم إلى الشام عند "معاوية"، فقد كان حزم "معاوية" هو الملجأ الذي كان "عثمان" يلجأ إليه إذا أراد تأديب أيّ من المُعارضين.

11

ولما مات الخليفة بعد اشتداد مرضه تسلم بعده ابنه خليفة للمسلمين، وكرر والي العراق طلبه بإعادة التحقيق معه، خصوصا بعد أنْ لحقت قبيلة الوالي السابق بالخوارج، وصاروا يثيرون القلاقل. فقرر سجنه ومن ثم طلب ببيعه بمبلغ قدره مائة ألف درهم وهو بقية المبلغ الضائع الذي يبحث عنه..

أمّا الوالي المعزول فلم يشتر نفسه من ماله الخاص.

وهو يقول:

- *"مثلي يشترى ولا يباع"* ..

فكانت فرصة أنْ يشتريه والي العراق، دون تردد. واقتاده إلى مكان خاص، ولم يتركه يهنأ أبداً. حتى بدأ بتعذيبه، وقد راهن على انتزاع منه بقية المال الذي كان متيقناً من وجوده، كان الأول يقول للثاني *"اشتريتك لغاية أنت تعرفها، أرجع لي المال الذي دفعته فيك، مع ربح طفيف"* ..

كان الأول يخاف من الثاني برغم أنَّ الثاني مكبلٌ وبلوغه السبعين فلا يقترب منه أحد لأنه كان قوي البنية، بعينين متلامعتين تبرقان شرًّا مقيتاً تظهر قوته برغم قيده الذي جعله ضعيفا، بائسا، إلا أنّه كان الـحراس جميعهم يهابونه رغم رباطه المتين. بقي كالنمر المتوثب، الصامت.

علق من رجليه، بواسطة رافعة المنجنيق، وطلب الوالي من مساعده أنْ يجر عتلة المنجنيق نصف جرة، بينما بقي "الثاني" ينظر إلى الأول نظرات كلّها هزء وكراهية متراكمة، فقال له الوالي: *"تظنني أرسلك بالمنجنيق، فتموت سريعاً لا والله لست فاعلها كما كنت أنت تفعلها مع من استرحمك"*..

أما الأول قد أعد للثاني مفاجأة لا يتوقعها إذْ قال *"هاتوا عباءته"*[34]، حتى أعطوه ما طلب، ثم طلب أنْ ينقعوها بزيت الزيتون، وفعلوا، وطلب أنْ يفتحوا العلبة الخاصة بالديدان، وأنزلها على وجهه ثم أحكم لف العباءة المليئة بالدود الأسود[35] ولم يدرك أحدٌ غاياته، كما طلب منه أنْ يقول قوله الأخير، ولكنه لم يقل، كأنه لم يسمع، ولم يمتثل إلى تهديد أبداً..

بقي الوالي السابق معلقا بعمود المنجنيق، مدلى ورأسه إلى الأرض. وبعد لحظات بدأ الدود تنفر من الزيت ليستقر في حفره إلى عمق جلد وجهه، وراح يحفر عميقا في أدمة الوجه الطرية، بينما كانت صرخات ألمه تصل إلى أبعد سماء.

34- لم تذكر أغلب المصادر التي وقعت بين أيدينا سبب الكراهية المباشر التي حملها "يوسف عمر" لـ"خالد القسري البجلي"..

35- الذي له صفة حفر الجلد ليضع بيوضه تحت جلد الماشية.

وراح ينتفض ويقول له، مختصرا عذابه "أخفيتها في جدار مذبح الكنيسة"، كأنه لم يسمع ما قاله، وراح يشد العباءة جيدا على وجهه، وهو يقول *" ما كنت يوما تسمع أحدا يسترحمك"* .

راح ينزّ الدم من القماشة، بينما بقي الوالي ينتظر منه رفسته الأخيرة، ولما حدثت، أمر عامله على المنجنيق أنْ يسحب العتلة إلى نهايتها، وكأنّه أراد به القذف إلى أبعد مكان، ولكنه أدار المنجنيق بنفسه، وصوب حمله إلى جهة الجدار القريب، وطلب من عامله أنْ يتنحى جانبا حتى يطلقه بنفسه باتجاه الجدار، بلا أي تأخير. وكادت الحمولة المرتطمة أنْ تسقط الجدار، بعد أنْ تناثر دمه.

انتهت: 2017/ 10/ 7

محمد الأحمد

كاتب عراقي تولد 1961.

❖ **الروايات**

- حركة الحيطان المتراصة/ بغداد 1998.
- ورد الحب.. وداعاً/ بغداد 1999.
- متاهة أخيرهم/ بغداد 2013 (مترجمة إلى الإنكليزية) دار صافي/ واشنطن/ The maze of the last one

❖ **القصص**

- جمرة قرار أبيض/ بغداد.
- أربع واربعون متوالية/ بغداد.
- بعد الجمر قبل الرماد/ دار الشؤون الثقافية – بغداد.
- زمن ما كان لي/ دار الشؤون الثقافية – بغداد.
- الحلم بوزيرة/ دار الشؤون الثقافية – بغداد.